مَوتُ المَوتِ

أ.د. عقيل حسين عقيل

2021م

موتُ الموتِ

المؤلف

أ د. عقيل حسين عقيل

2121م

المحتويات

المقدِّمةُ 4

الوجودُ موتٌ وحياةٌ 9

الوجودُ مِن اللاشيءِ إلى الشّيءِ خلقًا 24

وجود اللاشيء خلقًا 24

وجود الشيءِ: 40

الوجودُ البشري خلقًا: 50

الوجود العقلي دراية 54

العقلُ بلا دراية 78

الوجود الكوني انفتاقًا 98

انفتاقُ الأرضِ موتًا وحياةً 108

الموتُ 122

القتلُ قتلان 125

موتُ الموتِ 136

الموت موتتان 156

الوجودُ عدمًا 160

الحياةُ حياتانِ 170

الرُّجوعُ إلى الله تعالى 184
صدر للمؤلّف 209
المؤلّفات 210
المؤلّف في سطور 229

المقدِّمةُ

مع أنَّ بني آدم يعرفون الموت دلالةً ومفهومًا، فإنَّ بعضهم لا يعتقد أنَّ الموتَ يموتُ، وأنَّ كثيرين منهم مع أنَّهم يؤمنون بموته؛ فإنَّهم في حاجةٍ لمعرفةِ:

. متى يموتُ الموتُ؟

. كيف يصبح الوجود من بعده؟

من هنا جاء مؤلّفنا بحثًا في هذا المفهوم بغايةِ الوصول إلى نتيجةٍ استمدّت تساؤلاتها وفرضيَّاتها من هذين السُّؤالين السابقين.

ولأنَّ الموتَ جزءٌ من الوجود، فهو المخلوق كغيره من المخلوقات، ولأنَّ الله خَلق من كلِّ شيءٍ زوجين؛ مصداقًا لقوله تعالى: {وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ}[1]؛ فكان وجود الموت والحياة على الأرضِ الدُّنيا وجود زوجين اثنين جنبًا إلى جنبٍ، ومع أنَّهما زوجين على الأرض الدُّنيا ولا يتكاثران فإنَّ الأموات والأحياء منهما وفيهما يتكاثرون حتى النّهاية.

[1] الذاريات: 49.

ولأنَّ الموتَ مخلوقٌ كغيره من المخلوقات الدّنيويّة؛ مصداقًا لقوله تعالى: {تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ}[2]، إذن: فلا مفرَّ للموتِ من الموتِ.

ومع أنَّ الموتَ في الحياة الدُّنيا مخيفٌ للبعض، فإنَّ حقيقةَ وجوده خَلقٌ لا تخيف؛ لأنَّه المخلوق الدُّنيوي الذي لا ظُلم في الحكم به على من انتهت أعمارهم، وأنَّ الخَلق جميعهم متساوون أمامَ عدالةِ حكمه (الفقير مثل الغني، والحاكم مثل المحكوم، والظّالم مثل المظلوم، ولكلٍّ عمله)؛ ولذا فإنَّ موت الأحياء على الأرض الدُّنيا لا يحدث إلَّا مرّة واحدة ولا يتكرّر، ولأنَّه لا يتكرّر وسيحدث في الحياة الدّنيا مرّة واحدة، إذن: فلا مفرّ منه، ولأنَّه لا خروج من الحياة الدُّنيا إلى الحياة العليا إلَّا من بعدِ ساعة قدومه، فقدومه كما يعدّ المنقذ من الحياة المملؤة بالفتن والمظالم والمكائد والمفاسد، فكذلك يعد قدومه إعلانَ حقّ لدخول حياة النعيم الباقية لمن عَمل صالحًا.

ومع أنَّ الموتَ يأتي بلا طلب، ولا بدَّ أن يأتي، فإنَّ المؤمنين به حقًّا يطلبونه كلّما خُدشت كرامة، أو طُمست هويّة، أو انتهك عِرضٌ، أو داست أقدامُ المعتدين ترابَ الوطن، أو مُسَّ الدّين الذي أمر الله به؛ ومن هنا فالموت لا يُخيف؛ لأنَّه بيد العدل –جلَّ جلاله–ولم يكن بيد ظالم.

[2] الملك: 1، 2.

وعلينا أن نفرّق بين الموت والقتل؛ فالموت لا يكون إلّا بيد المميت عزَّ وجلَّ، وهو لا يحدث إلّا في وقته الذي لا بدّ وأن يحدث فيه، أمَّا القتل ففيه من المظالم ما فيه، ويكون على أيد قتلة.

وبغايةِ البحث العلمي وجبَ علينا العود إلى المصدر الرّئيس، الذي تستمدّ المعلومات الصّائبة منه حُجّة بحجّة؛ وذلك بهدف تصحيح المعلومات الخاطئة والتمكّن من الدّراية الواعية؛ ولذا فإنَّ مؤلّفنا: (موت الموت) وُلِدَ ليُقدّم الحقائق كما هي حتى التمكّن من التدبّر وبلوغ النتائج الموضوعيَّة وبكل أريحيَّة، فكان مصدرنا القرآن، الذي فيه المعلومات الوافرة حُجّة بحُجّة؛ وتلك هي الآيات وبعضها من بعض.

ولأنَّ مصدر حُجَّتنا القرآن الكريم؛ فكان مفتاح مؤلّفنا بحثًا بعد بسم الله الرَّحمن الرَّحيم؛ قوله تعالى: {كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}[3].

في هذه الآية نصٌّ على:

. وجوب الإيمان بالله تعالى، وهذه مُسلّمة لمن آمن، ومجادلة مع من كفر.

. جاءت المرحلة الأولى وجودًا تؤكّدُ أنَّ الموتَ سابق على عمليّة الإحياء: {وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا}، وهذه المرحلة نعرّفها بـ:(الموتة الأولى).

[3] البقرة: 28.

. جاءت المرحلة الثَّانية مبيّنة للإحياء من الموت {وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ}، وهذه المرحلة نعرّفها بـ:(الإحياء الأوَّل).

. جاءت المرحلة الثَّالثة مؤكّدة على موتة الخلائق على الأرض الدّنيا: {ثُمَّ يُمِيتُكُمْ}، وهذه المرحلة نعرّفها بـ:(الموتة الثَّانية).

. جاءت المرحلة الرَّابعة لتبيّن لنا أنَّ أولئك الموتى سيحيون من العدم الذي أصبحوا عليه أثرًا: {ثُمَّ يُحْيِيكُمْ} وهذه المرحلة نعرّفها بـ:(الإحياء الثَّاني من العدم)

. جاءت المرحلة الخامسة لتبيّن لنا أنَّ الأمر كله بيده تعالى، ولا رجوع إلَّا إليه: {ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}، وهذه المرحلة نعرّفها بـ(الرجوع إلى الله).

وفقًا لهذه المعطيات كان البحثُ معمّقًا في مؤلّفنا: (**موت الموت**)، وأصبحت النتائج فيه ميسّرة لمن شاء الاطلاع والمعرفة الممكّنة من الدّراية، أو الاستفسار، أو النقد الممكّن من التصحيح والتصويب أو الإضافة.

وعليه: جاء مؤلّفنا ليقدّم حجّته برهانًا على موت الموت، وليس ردًّا على ذلك المؤلف للطبيب والمفكر الفرنسي لوران ألكسندر، الذي أصدر كتابه: (موت الموت) في العام 2011م؛ فذلك الكتاب لم يتناول موضوع مؤلّفنا هذا لا من قريب ولا من بعيد، بل تناول توقّع المؤلّف لثورة علميَّة قادمة، وهي الثورة البيوتكنولوجية، ستؤدي إلى نهضة علميّة

لم يسبق لها مثيل، ثورة كما يتوقّعها الطّبيب المفكّر لوران ألكسندر تجعل للخلايا المَيِّتة حياة باقية.

والحمد لله ربّ العالمين.

أ د. عقيل حسين عقيل

إسطنبول 2021م

الوجودُ موتٌ وحياةٌ

الوجود لا يُمكن أن يكون وجودًا ما لم يسبقه الواجد، والوجود على عظمة وجوده إعجازًا لا يمكن أن يكون أعظم ممن أوجده، وكذلك لن يكون أعظم مما أوجد منه، وهو الذي لا يمكن لنا أن نصفه بأيِّ صفة سِوى وصفنا له باللاشيء وجودًا، وهذا يعني: أنَّه لا إمكانية لإيجاد الشيء إلَّا بفعل المشيء له شيئًا؛ سواء أكان الشيء ذا صفة بها يتصف ويميّز، أو لم تكن له صفة بها يوصف أو يميز؛ مما يجعلنا نصفه باللاشيء، ومع ذلك نعترف به وجودًا؛ كونه بين أيدينا خاضعًا للمشاهدة الحسيّة أو خاضعًا للملاحظة العقليّة، أو أنْ يدرك بأيِّ دلالة من دلالات المعرفة كما هو حال معرفتنا للموت والحياة، ومعرفتنا للملائكة والجن؛ مصداقًا لقوله تعالى: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّنْ صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ}[4].

وبما أنَّ العقل الإنساني كله يعترف بالوجود بالقوّة (أمرٌ واقعٌ) فهو ضمنيًّا ينبغي أن يعترف بوجود الواجد؛ ولذا فالذين ينكرون ذلك بقولهم: (الكون خلق نفسه من لا شيء ولم يكن من ورائه خالق) فهم كمن ينكر وجوده من نطفة، ومن قبلها من تراب، وهو يعرف أنَّه لو لم تكن النطفة ما كان له وجودٌ، ومن يكن من بين هؤلاء كيف له أن يقنع محاوريه

[4] الحجر 28 – 31.

ومجادليه وهو يعرف حقيقة مفادها: (وراء كل مخلوق خالق) بمعنى: وراء كل موجود واجد؟

وعليه: فالذين يقولون: إنَّ الكون قد أوجد نفسه من تلك الذَّرة لم يجيبوا بعد عن السُّؤال القائل: من الذي خَلق تلك الذَّرة التي قالوا عنها: انفجرت كونًا متسارعًا في التمدد؟ وهم كذلك لم يجيبوا بعد عمّن زَمَّن تلك الذّرة للانفجار العظيم، وهي الذَّرة التي وصفوها بالتناهي في الصغر، وهم لم يكونوا شهودًا عليها وقت انفجارها؛ وذلك لكونهم لم يخلقوا بعد؟

ووفقًا لما يدَّعيهِ أصحاب نظريَّة: (الكون خلق نفسه، ولم يكن من ورائه خالق)، لِمَ لا يسمّونه الخالق بما أنَّه خَلق نفسه، ومن ثم يُحرِّرونه من ذلك المسمى الكوني الذي أطلق عليه نسبة للأمر (كن) فكان، وفقًا للأمر (كن) كونًا؟

وإذا سلمنا افتراضًا بما قالوا: إنَّ الكون قد خلق نفسه من لا شيء، فَلِمَ لا يخلق غيره أو يوجده بما أنَّه يمتلك صفة الخلق والإيجاد؟

ولأنَّ علماء الفيزياء يفترضون وهم يفسّرون معلوماتهم بوجود أكثر من كون، فهل هذه الأكوان جميعها قد خَلقت نفسها من لاشيء، أم إنَّ وراء كلّ كونٍ خالقًا؟ أم إنَّ للأكوان خالقًا واحدًا؟

ولأنَّ القاعدة المنطقيَّة تقول: (الخالق لا مثيل له)؛ لأنَّه الخالق، إذن: فالإقرار بوجود أكثر من كون، وكلّ كون خالق لنفسه من لاشيء يعدّ إقرارًا بوجود أكثر من خالق، وهذه الحجّة تبطل مقولة: (الكون خلق نفسه)؛ لأنَّه لو خلق نفسه؛ لما كان له مثيل (كون آخر).

ولأنَّ الدلائل تشير إلى وجود أكوان أخرى؛ فكيف لنا باختراقها ونحن حتى الآن لا نستطيع اختراق حدود كوننا المتسارع في التمدّد؟

وإذا أجزنا ذلك؛ فهل هذه الأكوان هي من نتاج ذلك الانفجار العظيم (الانبهار) أم إنَّ لكلِّ كونٍ انفجاره؟

ولأنَّ طبيعة الانفجار مدمّرة للأشياء؛ فلماذا وُصف الكون بهذه الصّفة التدميريَّة التي لا تؤدّي إلى الخلق والبناء؟ وكيف يمكن لنا التسليم بهذه الصّفة التدميريَّة، وفي الوقت ذاته نسلّم بأنَّ الكون خلق نفسه من لاشيء ولا خالق له؟

وإذا سلّمنا بأنَّ وراء هذا الكون تلك النّقطة الذّرية؛ فينبغي لنا التسليم بأنَّه لو لم تكن تلك الذّرة المتناهية في الصّغير ما كان الكون، وهذه الحجّة تبطل القول: (إنّ الكون خُلق من لاشيء) وتثبت أنّ الذي خلق تلك الذّرة المتناهية في الصّغر هو الذي خلقها على الانفجار الذي أخرج الكون منها؛ ومن ثمَّ تُبطل مقولة: (خُلق الكون من غير خالق).

وإذا سلّمنا بالانفجار الكوني؛ فهل ذلك الانفجار حدث في مكان وزمان، أم أنَّه حدث في غير مكانٍ ولا زمانٍ؟ وإن حدث في مكان وزمان، يظل الزّمان والمكان سابقين على وجوده، وإن قال قائل: إنَّه حدث في غير مكان ولا زمان؛ فالتساؤل: هل يمكن في غير مكانٍ وزمان أن يكون للانفجار صفة التمدّد والانتشار المتسارع؟

وعليه: فهذا الأمر وضعنا في مجادلة تستوجب تصحيح المعلومات الخاطئة بمعلومات صائبة تُمكِّن من معرفة الوجود الكوني دون تعصُّب بغير بيِّنة؛ ممَّا يجعل البعض يطلب تحديدًا لمفهوم العدم مع إظهار الحجّة المرسّخة لخلق الكون منه.

فالعدم مع أنَّه أثرٌ يثبت وجود شيء، فإنَّنا إن سلّمنا بفرضيَّة خلق الكون من العدم؛ فقد سلّمنا بوجود شيء سابق على وجود الكون؛ ومن ثمَّ يصبح الكون مخلوقًا من ذلك الأثر المتناهي انعدامًا، وإذا سلّمنا به أيضًا فلا يمكن التسليم بأنَّ: (الكون خُلق من لاشيء)؟

وعليه: فإنَّ المنطق العلمي يقول: إذا سلّمت بوجود شيء قابل للانفجار؛ فلا بدّ أن تسلّم بوجود علل انفجاره وإن لم تعلمها.

وفي كلتا الحالتين؛ فإنْ أنكرت تلك العلل فإنَّ إنكارك لها لا يلغي وجودها، وإن سلّمت بها فإنّك قد سلّمت: (أنَّ وراء كلّ علّة معلولًا، ووراء كلّ مخلوق خالقًا).

والمنطق العلمي يقول: (في الوقت الذي تعرف فيه شيئًا منفجرًا، تعرف فيه شيئًا آخر قد انتهى)؛ فوجود الكون بأسباب الانفجار كان نهاية لذلك المنفجر، فعلى سبيل المثال: القنبلة المنفجرة أوَّل ما تُنهي تُنهي وجودها، ثمّ تؤثّر في محيطها تأثير سالبًا ومباشرًا؛ ولذلك فأيّ منفجرٍ ما لم يكن له مكان للانفجار فلا يمكن له أن ينفجر، وهذه الحجّة تثبت وجود مكان لتلك الذّرة التي انفجرت –في حالة ما إذا سلمنا بوجودها– ولأنَّ تلك الذّرة قد انفجرت –كما يقولون– قبل أن يُخلق الكون، إذن: فهي المزمّنة على الانفجار، ولأنَّها مزمّنة للانفجار، إذن: فالزّمن سابق على وجود الكون؛ ومن ثمّ فمَن الذي خلقها؟ ومَن الذي جعلها على الزّمن (لحظة الانفجار)؟

إنَّ بعض الفيزيائيين يعترف بحدوث الانفجار في الفراغ، وفي المقابل آخرون يرون أنَّ الانفجار كان بالفراغ، ولم يكن فيه، وفي كلتا الحالتين: حدث الانفجار، ولأنَّه حدث فلا بدّ من وجود حيّز مهيئ لانفجاره؛ ليسمح له بالتمدّد.

وإذا أجزنا ذلك؛ فقد اعترفنا بأسبقيَّة الزَّمن الذي من دونه لا يمكن أن يكون الانفجار، ومع ذلك وإن توافر المكان والزّمان فإنَّه لا انفجار إلّا بسببٍ، ولسببٍ.

ولأنَّ بعض الفيزيائيين يقرُّ بخلق الكون من لاشيء؛ فإنَّهم يقرّون بنهايته لا محالة، ومن هنا أتساءل:

هل بقولهم هذا يقرّون أنّ الكون قد خلق نفسه من لاشيء بغاية إنهائها، وكأنَّه لا شيء من وراء خلقه إلّا أن ينفجر ثانيةً؟

فإذا أقرّوا ذلك؛ فقد أقرُّوا بعبثية خلق الكون: (كون بلا سبب، ولا طموح، ولا غاية). ولأنَّ بعض العلماء أقرَّ بخلق الكون من لاشيء فهم بقرارهم هذا اعترفوا بأنَّه مخلوق (كونه كما قالوا: خلق نفسه)، وبما أنَّه مخلوق؛ فما هو الغرض مِنْ خلقه؟ نعتقد أنَّه لا أحد يستطيع الادعاء بمعرفة غرض الكون، وبخاصّة أنَّ الغرض يسبقه هدفٌ وتلحقه غاية، وهذه لا يعرفها إلّا عليم، والكون بلا ذاكرة، فكيف له بذلك؟!

وإذا سلّم البعض بخلق الوجود الكوني من لاشيء، ولا خالق له؛ فهل خَلْقُ الكون مؤسّس على قوانين؟ أم إنَّه لا قوانين تحكمه؟

إذا قبلوا بخلقه على قوانين، فقد قبلوا بأسبقيَّة القوانين عليه، وإذا قبلوا بذلك، فلن يقبلوا بخلق القوانين لنفسها؛ وذلك لمعرفتهم أنَّ القوانين ليست مادّة، بل هي ضوابط للتوازن والاعتدال والانتظام والحركة والسّكون، فهي لا تكون إلّا من مدبّرِ أمرِ الخلقِ؛ ولأنَّ الكون خُلق على قانون. إذن: فمن الذي خلق القانون الذي تأسّس خلق الكون عليه؟

وإذا رجعنا إلى قول عالم الفيزياء روبرت جاسترو: "إنَّ البذرة التي تَشكَّل عنها كلّ ما في الكون وجودًا كانت قد زُرعت في تلك اللحظة الأولى، وكلّ مخلوق حي في الكون جاء للوجود نتيجة الأحداث التي تمّ

تعيينها في لحظة الانفجار الكوني"[5]، وبالعودة إلى قول العالم جاسترو، نعرف أنّ تلك البذرة قد زُرعت في تلك اللحظة، ولكن بما أنَّه قد اعترف بزراعة تلك البذرة، إذن: فقد اعترف بوجود البذرة قبل زراعتها، ومن هنا أتساءل:

. من الذي أوجد البذرة؟ ومن أين أوجدها؟

. من الذي زرعها، وأين زرعها، ومتى زرعت؟

. من الذي شاهدها بذرة قبل انفجارها؛ ليصفها لنا يقينًا بأنَّها بذرة؟

. ومن الذي يعلم الأسرار العظيمة لفك اللغز؟[6]

وعليه: فإنَّ الوجود دليل إظهار الشيء ليكون شاهدًا على وجوده طوعًا أو كرهًا، ومن ثمَّ فالوجود لم يكن في حاجة لمن يثبه وجودًا، أي: مهما امتلك المبرهن من أدلّة على وجوده فإنَّه لا شيء أعظم من امتثاله بين المشاهدين مشاهدًا، وهذه الرؤية المنطقيَّة لا تأخذ ما قاله الفيلسوف الفرنسي ديكارت: (أنا أفكر، إذن: أنا موجود) إلَّا من زاوية تحاور النفس

---

[5] Dinesh D'Souza, What's So Great about Christianity, (Regnery Publishing, Inc, 2007) p118.

[6] عقيل حسين عقيل، نحو النظريَّة خلقًا، مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2019م، ص 21 – 34.

مع النفس ذاتها، أمَّا غير ذلك، فالذي يسأل عمّا يثبت وجوده فهو لو لم يكن موجودًا ما سأل مَنْ سأل.

ولذا فالوجود وحده يجيب عن وجوده، وإلَّا فإن الموجودات التي لا تجيب بما يثبت وجودها لغة (حُجَّة) هل عدم مقدرتها على الإجابة يدلُّ على أنَّها غير موجودة؟ أي: النجوم والكواكب والمحيطات والبحار والأنهار والأشجار والبراكين التي وجودها جزءٌ من الوجود الكوني لا تعد موجودة لا لعلّة إلَّا لأنَّها لا تجيب عن فعل الأمر: (أَثبِت وجودك)!

ومع أنَّ المقصود من فلسفة: (أنا أفكر فأنا موجود) ترشد إلى أنَّ الوجود يجب أن يكون فعَّالًا ومؤثرًا تأثيرًا إيجابيًّا وإلَّا لا داعي لوجوده، فإنَّ الوجود شيءٌ والتأثير شيءٌ آخر؛ فالمعاقون وكبار السن والأطفال والعجزة هم في حاجة لمن يثبت وجودهم بإشباع حاجاتهم على الرّغم من وجودهم؛ ولهذا لا داعي لتعميم هذا المطلب أو النظرة أو الأمر: (أثبت وجودك وإلّا لا تعد موجودًا)، فالبراكين موجودة، وإذا ثارت ألا يكفي ثورانها الذي ينهيك إلى الأبد أو يبعدك؛ خوفًا وتجنُّبًا دليلًا على إثبات وجودها؟ وهكذا قوّة المحيطات والبحار والزلازل والنَّار وغيرها كثير.

ومع أنَّ دلالة الوجود وماهيته واحدة، فإنَّ مقاصد الباحثين في ميادينه تختلف باختلاف الثقافات والمعارف والانتماءات العقدية؛ فما يراه البعض وجودًا قد لا يراه البعض كذلك (فلاسفة وعلماء)، وبين هذا

وذاك؛ فالوجود لا يكون حيث لا وجود، فهو يشغل حيّزًا وإن كان متناه في الصّغر (ماديًّا أو معنويًّا).

فالوجود إثبات لا يكون في حاجة لمثبت؛ فالصّمت الذي هو امتناع عن الكلام بإرادة يعدّ إثبات وجود، وفي المقابل الجبال تعبّر عن وجودٍ راسٍ على الأرض المتحرّكة وجودًا، وهكذا الحقّ وجود في مقابل وجود الباطل، وكلّ شيء نعترف به أو ننكره نثبت وجوده. وإلّا هل يمكن لنا التحدّث عن شيء (إثباتًا أو نفيًا) لو لم يكن موجودًا مشاهدًا أو مدركًا وملاحظًا؟

فعلى سبيل المثال: الكون العظيم كلّه خُلق وجودًا مرتقًا، ثمّ فُتق أكوانًا نعلم وجودها ولا نعلم سرَّها سوى شيء من كوننا الذي يرشد إليها وجودًا.

ومع أنَّ الفيلسوف سارتر قد ميّز بين الوجود وأسبقيَّته، والماهيَّة ولاحقيتها، فإنَّ رؤيته الفكريَّة ربطت الوجود بالفاعليّة والحرّيّة وكأنَّ من لا يدركهما لا وجود له.

وهنا أتساءل:

هل يحقّ لنا ألَّا نحسب وجودًا للكون المرتق الذي وجدت منه الأكوان المفتقة والأرض التي دُحِيتْ منه وما فيها وما عليها من أنهار وجبال وكائنات؛ كونها لا تمتلك مدركات الحرّية وفقًا لمعرفتنا؟

وبما أنَّ الوجود يشغل حيّزًا، إذن: فلا إمكانية لإنكار ما يشاهد أو يلاحظ وجودًا (وجود موت، أو وجود حياة، أو وجود أثر وعدم)؛ فالوجود يحتوي على الدّلالة كما يحتوي على الكينونة (الماهيّة)؛ إذ لا ماهية إلّا لوجودٍ. أي: لو لم يكن الوجود بفعل فاعلٍ ما كانت الماهية بإرادة المفعول المخيّر في دائرة الممكن المتوقَّع وغير المتوقَّع.

ومن هنا، فالوجود لا يكون إلّا عن قوّة وإرادة فعّالة، ممّا يجعل مشيئة الوجود بيد الموجد له بالقوّة، والقوّة الفعّالة يمكن أن تكون مطلقة، ويمكن أن تكون نسبية ممكنة؛ فالخالق يخلق بالقوّة المطلقة، والصّانع يصنع بالقوّة النسبيّة؛ ولهذا فالإنسان يمتلك القوّة التي تستوجب حُسن تصرّف في دائرة الوجود الممكن، فإن كان التصرّف عن إرادة حرّة، كان الإنسان مسئولًا عن تصرفاته سلبًا وإيجابًا. أمَّا التسيير فدائمًا مطلقًا بالقوّة، وفي المقابل لا يكون التخيير إلَّا نسبيًّا بالإرادة؛ وفقًا للمقدرة المتوقّعة وغير المتوقّعة.

إذن: الوجود شيء لا يخفى وإن قصر البعض عن إدراكه؛ فهو عظيم في تناهيهِ كبرًا وصغرًا وحركةً وسكونًا، وسيظل الوجود نكرة إلى أن يُدرك ويعرّف صفةً وخاصيّةً ومفهومًا ومعنًى.

فالوجود خَلقٌ بفعل الخالق؛ فلو لم يكن الخالق ما كان للوجود وجود، وأوّل وجود نعلمه وجود الكون المرتق، ثمّ الانفتاق العظيم الذي جعل من الكون المرتق أكوانًا مفتقة بُعث الموت فيها والحياة فكانت

الكائنات الحيّة تحيا من الموت، ثم تموت وتبعث وفقًا للمشيئة التي شاء لها الله أن تبعث عليها.

وبناء على ذلك كان التكاثر فأصبح الوجود من بعد الإحياء الأوَّل نشوءًا يتولّد خلقًا بعضه من البعض، كتولّد الأكوان من الكون المرتق، وتولّد الأرض من كوننا الذي يملؤه الوجود بالقوّة الخلقية، ثمّ نشوؤنا من الأرض وإنباتنا منها نباتًا.

وفي المقابل هناك الوجود بصفة الارتقاء الإنساني (ثقافة، وفكر، وعلم، وخُلق، وذوق) به يتميّز الإنسان (قيمة في ذاته) عن بقية الوجود الواسع؛ ولهذا فالوجود الإنساني في أساسه وجود منتج ومتطوّر ارتقاءً.

ومع أنَّ الوجوديَّة كما يراها سارتر تنادي بمبدأ أسبقيّة الوجود existence على الماهية essence، لكنّنا نقول: لا الدّجاجة أسبق على البيضة، ولا البيضة أسبق على الدّجاجة؛ فالوجود والماهيَّة شيئان في شيء واحد، فلو لم يكن الوجود ما كانت الماهيَّة، ولو لم تكن الماهيَّة ما كان خلق الإنسان في أحسن تقويم؛ فماهيَّة الإنسان لو لم تكن معطياتها قد خُلقت وجودًا، ما كان للإنسان رُقيّ، ولكن الإنسان وإن ارتقى إلى ما يمكن بلوغه ارتقاءً؛ فسيظل قاصرًا وفقًا لقدراته المحدودة التي لا تمكّنه

من أن يكون الله كما اعتقد الفيلسوف سارتر بقوله: "أن أكون إنسانًا هذا يعني أن أنحو لكي أكون الله"[7].

ولأنَّ القاعدة المنطقية تقول: (لا معلول إلّا ومن ورائه علّة، ولا سبب إلّا ومن ورائه مسبّب)؛ فالاختلاف إذن: وجب مع قول الفيلسوف سارتر: "كل موجود يولد بلا سبب، ويستطيل به العمر عن ضعف منه، ويموت بمحض المصادفة"[8]، ولكن لا أدري: كيف يموت الموجود بمحض المصادفة وهو لا يمتلك قرار موته؟ وبخاصّة أنَّ سارتر قد ربط الوجود الإنساني بالحرّية، وكأنَّ من لا حرّية له لا وجود له! هنا وجب التوقّف قليلًا: فمن حيث الوجود المادّي كل من خُلق أصبح موجودًا، أمَّا من حيث المعنوي والمجرّد لا شكّ أنَّ للحرية معنًى، وهي إن غابت غاب الوجود المعنوي، والذي بغيابه لا يلغى الوجود المادي لِمَن لم تكن له حريَّة، إي: إنَّ الوجود بلا حريَّة هو وجود بلا قيمة.

ولأنَّ الكمال لله وحده كان التناقض في شيء من تنظيرات الفيلسوف سارتر الذي قال: "عندما الأغنياء يخوضون حروبًا مع بعضهم البعض، فإن الفقراء هم الذين يموتون" أي: إنَّ سارتر قد اعترف بسبب من أسباب الموت؛ وهو الاقتتال والحروب التي تدور رحاها من أجل المكاسب والمغانم أو الحرّية، التي هي السّبب في موت الفقراء بقرار من

---

[7] جان بول سارتر، الوجود والعدم بحث في الأنطولوجيا الظاهراتية، (ترجمة: عبد الرحمن بدوي) دار الآداب، بيروت، 1953م، ص 218.

[8] المصدر السابق، ص 126.

الأغنياء، وهنا لا موتَ بمحض المصادفة، بل الموت بسبب من ورائه مسبب[9]. أي: إنَّ الموت لم يكن مطلبًا، بل هو وجود لا يمكن إنكاره؛ فمتى ما شاءه المميت كان وجودًا شاهدًا على نهاية الحياة؛ فالموت لو لم يكن وجودًا فاعلًا، ما كان له أثر مشاهدٌ ومحسوسٌ وملاحظٌ.

وعليه:

فالوجود لا يقتصر على من يمتلك زمام أمره عن حريّة كما يراه سارتر، بل يمتدّ ليشمل كلّ شيء يمكن أن يتمّ التحدّث عنه؛ سواء أكان ماديًّا أم معنويًّا (مشاهدًا أو ملاحظًا أو مدركًا)، أي: سواء أكان مكانًا أم زمانًا (حركةً وسكونًا)، وسواء أكان هيئةً أم تهيؤًا، أم أنّه كان قرارًا وإرادة ومسؤوليَّةً.

ولأنَّ وراء كلّ معلول علّة، ووراء كلّ سبب مسبّب، إذن: فلا موجود إلّا ومن ورائه واجد له، أي: لا موجود إلّا ومن ورائه من أوجده على قيد الحياة والممات (بداية ونهاية)؛ فالإنسان الذي خُلق في أحسن تقويم، لو لم يكن من ورائه خالق ما كان وجودًا حيًّا؛ ولهذا فالخرافة الضارة أن يؤخذ بقول الفيلسوف سارتر: "إنَّ الله خرافة ضارة"[10]، وبخاصّة أنَّه يعلم أنَّه لم يَخلُق نفسه، أي: لو لم يكن من ورائه خالق عظيم ما كان

---

[9] سارتر، جان پول، الغثيان، (ترجمة: فارس ضاهر، عدنان منافيخي) ط 2، 2006م، ص 74.

[10] سارتر، جان پول، الغثيان، (ترجمة: فارس ضاهر، عدنان منافيخي) ط 2، 2006م، ص 74.

شيئًا مذكورًا {إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا}[11].

ومع أنَّ الفيلسوف سارتر يعلم أنَّه لم يخلق نفسه، فإنَّه ظنّ أنَّه لا إله يسبقه؛ ولهذا فهو لا يعلم الحكم المسبق عليه قبل أن يُخلق: {إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا} فها هو سارتر لم يكن شاكرًا، وهذه من سُنن الخلق البشري؛ إذ البعض قد كفر بالخالق الذي خلقه على التسيير والتخيير الحرّ: {يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ}[12].

أي: إنَّ الذي غفل عنه سارتر هو: أنَّه لو لم يكن قد خُلق على فرصة التخيير ما كان له أن يكون كافرًا؛ ولأنّه خُلق مخيّرًا فيما يشاءه عن إرادة في دائرة الممكن المتوقَّع وغير المتوقَّع، فهو لا يرى وجودًا لمن لم يكن حرًّا، وفي هذا الشأن قد غفل عن الوجود المسيّر، وهو: ما لم يكن داخل دائرة النسبيّة؛ فالوجود كلّه وجود تسيير وتخيير؛ فالتسيير حيث لا إمكانيّة للتبديل أو أخذ الأمر والرأي وإن صدر أو قيل من قِبل القائلين؛ ولذلك فاليوم لا يتبدّل، والنّهار لا يتبدّل، وخلق الأجناس لا يتبدّل وإن تغيّرت الأنواع جينيًّا.

---

[11] الإنسان: 2، 3.

[12] الانفطار: 6 . 8.

ومن ثمّ فالتسيير لا تبديل فيه، والتخيير فيه التبدّل؛ فالوجود الإنساني ثابت حيث لا تخيير، وفي المقابل جوهره (ماهيته) تتغيّر تخييرًا، وفقًا للقدرة والاستطاعة، والرّغبة والحاجة المتطوّرة؛ ولذلك فسارتر لو لم يكن وجوده على التخيير ما كان له أن يقول: (إنّ الله خرافة ضارة)، ولأنّه قالها؛ فهو قد أثبت غفلته عن حقيقة خلقه (تسييرًا وتخييرًا) أي: لو علم سارتر بخلقه مخيّرًا لآمن أنَّ من وراء وجوده خالقًا شاء له أن يكون مخيّرًا.

ومع أنَّ سارتر لم يغفل عن الوجود والماهيّة، فإنَّه قد غفل عن الهيئة التي تسبق الوجود؛ فالوجود (أيّ وجود) لا يكون إلّا على هيئة تسبقه بفعل فاعل يسبقها، فلو لم تكن الهيئة وجودًا سابقًا على الوجود ما هُيّء الوجود على هيئاتها وجودًا مشاهدًا وملاحظًا ومدركًا.

وعليه: فالهيئة في علم المهيئ لها الأسبقيّة على وجود المتهيأ عليها، والمتهيّأ عليها يسبق ماهيّة من أصبحت له هيئة خاصّة به، وهي التي بها يتميّز عن غيره كما أنَّ غيره يتميّز عنه صفة وخصوصية ومهنة وحرفة وتجربة وخبرة.

ومع أنَّ الوجود مؤسّس على ماهيّة سابقة، وهيئة لاحقة، فإنَّه لا مفرّ له من العدم؛ فالعدم بعد الموت يلاحق الأموات عدمًا بمختلف أنواع الخلائق التي تملأ كوننا.

الوجودُ مِن اللاشيءِ إلى الشّيءِ خلقًا:

الوجود من اللاشيء إلى الشيء هو وجود الماهيّة، ثم وجود الهيئة التي تكون عليها صورة الخلائق والأشكال، سواء أكانت أكوانًا طباقًا، أم أنَّها كانت كواكبًا ونجومًا، أم إنَّها من هذه أو تلك قد خُلقت كما خُلق آدم وزوجه من صلصال كالفخار؛ كونهما قد أنبتا من الأرض نباتًا، وعلى الهيئة والصورة الآدميَّة التي ها نحن بني آدم عليها.

وجود اللاشيء خلقًا:

اللاشيء هو ذلك المخلوق وجودًا على غير خاصيّة ولا صفة خاصّة به؛ سواء أكان ظُلمة، أم فراغًا، أم مادّة كونيّة غير مصنّفة؛ كونها خالية الصّفة؛ ولذا فالدراية باللاشيء لا تكون إلَّا علم غيب يُنبَّئ به إنباء (رُسُل ورسالات)؛ ولذلك فخلق هيئة الشيء تسبق جعله شيئًا، وهيئات الأشياء تأخذ في التناهي كبرًا وصغرًا، فما يظهر منها للمشاهدة والملاحظة الحسيّة يعدُّ شيئًا، وما يختفي عنها يعدُّ لا شيئًا.

وخَلقُ اللاشيء يدلّ على شيءٍ مختفٍ في ذاته أو محيطه؛ حيث لا صفة له سوى صفة الخلق التي هُيئت له خلقًا، وجُعل على هيئتها اللاشيء؛ ومن ثمَّ فلا يعدُّ اللاشيء شيئًا إلّا بعد معرفته واكتشافه على الهيئة والصّفة.

أمَّا الشيء على الرَّغم من أنَّه قابل للمشاهدة والملاحظة، فإنَّه لا يقتصر عليهما؛ إذ هناك من الأشياء ما لا يشاهد: {وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ}[13]؛ فالكتاب مع أنَّه يشاهد فإنَّ ما يحتويه الكتاب لا يشاهد، بل يُدرك إدراكًا، فلو قلنا: الجهل شيء، نقول: التعلّم شيء آخر، ولو قلنا: الأميَّة شيء، نقول: الدراية شيء آخر، وإذا قلنا: الحقّ شيء، فالباطل شيء آخر، وسيظل الجهل لاشيء حتى يتحقّق، وسيظل التعلّم لاشيء حتى يتحقّق: {إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ}[14]؛ فالسَّاعة بعد علمنا بها فهي المتحقّقة علمًا ودرايةً؛ (كونها تعني شيئًا معلومًا)، وفي المقابل لحظة قيامها تعني: لا شيء معلوم.

ولأنَّ اللاشيء المتناهي في الدّقة يملأ الكون، فهو إنْ قُورن مع الشّيء من حيث المساحات التي يشغلها من الكون، يصبح الشيء لا شيئًا أمامه، ويكون اللاشيء هو الشيء العظيم، ولكن إن كانت المقارنة من حيث حجم المفردات الشيئيَّة واللاشيئيَّة فلا شكّ تكون الغلبة للمفردات الشيئيّة الظَّاهرة حجمًا كالكواكب والنّجوم، وهكذا كلّ شيء في دائرة المقارنة النسبيَّة يتبدّل ويتغيّر بين متوقَّع وغير متوقَّع.

فاللاشيء الذي يملأ الكون وجودًا يعدُّ مادّة خلق الأشياء، فتلك الأجسام المتناهية في الصّغر لو جمّعت بقوَّة الطّاقة والحركة الكونيَّة،

---

[13] النحل: 89.

[14] لقمان: 34.

لكوّنت شيئًا عظيمًا يمكن أن يكون بحجم نجمٍ أو كوكب، ومن هنا نستطيع القول: إنَّ هذا الشيء المتولّد بالطّاقة الكونيَّة أصبح بإرادة المشيء له شيئًا، مع أنَّه لم يكن مِن قَبل شيئًا.

ولذلك فاللاشيء هو المهيأ لوجود الشيء وفقًا للهيئة التي هيأها له الخالق، ومن ثمّ فوجود اللاشيء سابق على وجود الشيء.

ولأنَّ وراء كلّ مخلوق خالق والشيء مخلوق، إذن: فمن ورائه خالق، وإلّا **هل هناك مَنْ يظن كما ظنّ لورانس كراوس أنَّ اللاشيء خُلق هو الآخر من لا شيء؟**

أقول: بما أنَّنا نصفه باللاشيء، إذن: فلا يمكن أن يكون خالقًا؟ أي: لا بدّ أن يكون مخلوقًا، وبما أنَّ الشيء مخلوق من اللاشيء، واللاشيء من ورائه خالق، إذن: لا بدّ أن يكون الشيء مخلوقًا ومن ورائه خالق لم يسبقه خالق: {وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ}[15].

إذن: اللاشيء لو لم يكن موجودًا ما تحدثنا عنه، ولأنَّه موجود فهو قابل للنّفي والإثبات، وإلّا هل هناك من ينفي وجود شيء أو يثبته لو لم يعرفه أو يعلم عنه، أو أنَّه به أُعلم وأُدري؟

وبما أنَّنا نتحدث عن اللاشيء إذن: نتحدث عن شيء حتى وإن لم نتمكّن من رؤيته، ولكن ما الفرق بين اللاشيء والشيء؟

---

[15] الواقعة: 60.

اللاشيء هو الذي على الرَّغم من وجوده نجهله، وبتناهيه في الصّغر لا يخضع للمشاهدة العينيَّة، ولكن إن حال بينه وبين معرفته جدار عاتم يمنع مرور الضّوء عبره فلا يخفيه عن خالقه: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ}[16]، وفي المقابل الشيء نعلمه، ونشاهده، ونلاحظه، وندركه، ونحسُّ به، أو نستشعر، أو نفكّر فيه.

ولأنَّ اللاشيء لا يتولّد إلّا في دائرة المجهول فسيظل هناك لاشيء حتى لحظة اكتشافه التي من بعدها يصبح شيئًا وإنْ كان متناهٍ في الصّغر والدّقة.

فاللاشيء هو على غير صفة، أي: لو كان على صفة لكان له مسمّى، ولأنَّه يفتقدها، فهو لا شيء، أمَّا الشيء فله صفة ومسمى، مثل: الأرض، والشّمس، والقمر، ومثل: الكائنات والأدوات المشاهدة وغيرها من المتنوّع والمتعدّد.

وكما يتمدّد اللاشيء في دائرة المجهول نكرة فكذلك الشيء يتمدّد نكرة حتى يتمّ تمييزه: {وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ}[17]، فشيئًا هنا تعني: المجهول والمعلوم؛ إذ لا تحديد لشيء بعينه.

---

[16] آل عمران: 5.

[17] البقرة: 216.

أمَّا اللاشيء فيعدُّ مادّة خلق الشيء أو طينته التي لو لم تكن مخلوقة ما خُلق الشيء منها: {وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا}[18]، فالإنسان كونه شيئًا، تعني: أنَّه كان لا شيئًا، سوى وجود عناصر خلقه مبعثرة في تراب الأرض جنّة؛ وذلك عندما كانت مرتقة في السَّماء، واللاشيء مثله مثل الشيء لا بدّ وأن يشغل حيّزًا، وإن كان الحيّز متناهٍ في الدّقة والصّغر ومبعثرًا في التراب.

وعليه: وجب علينا تبيان ما يدلّ عليه مفهوم اللاشيء، حتى لا يؤخذ عنَّا ما أُخذ عن تنظيرات العالم الفيزيائي لورنس كراوس الذي قال: "إنَّ الكون خُلق من لاشيء، ولا خالق له"[19]، أي: لاشيء يمكن أن يشار إليه بالشيء قبل خلق الكون من لاشيء.

أمَّا نحن فأسّسنا تنظيراتنا وفقًا لقانون الخلق: (لا مخلوق إلّا ومن ورائه خالق)؛ حيث لاشيء إلّا ومن ورائه مشيء له، ممّا يجعل المشيئة سابقة على المشاء؛ ولذلك فالمشيئة قرار مسبق على خلق شيء لم يسبق له أن كان شيئًا.

غير أنَّ العالم الفيزيائي كراوس يحاول أن يرسّخ نظريَّته: (كون من لاشيء) بمفهوم: (خَلقُ الكون بلا خالق)، معتبرًا أنَّ الكون قد خُلق من

---

[18] مريم: 9.

[19] A Universe from Nothing: Why There Is Something Rather than Nothing' by Lawrence Krauss (Free Press; January 10, 2012.

لاشيء، ثمّ يرى من زاوية أخرى أنَّ الكون كان نتيجة انفجار تلك الذَّرة المتناهية في الصّغر[20].

وإن سلّمنا بخلق الكون من لاشيء **فهل الكون خلق نفسه من لاشيء لحظة الانفجار، أم أنَّ خلقه من لا شيء كان مترتّبًا على ذلك الانفجار، أم أنَّ خلقه من لاشيء كان مرتبطًا بذلك المنفجر؟**

وإذا سلمنا أنَّ (الكون خُلق من لاشيء) فهل خلق نفسه عن تدبّر ودراية أم هكذا عبثًا؟ وإذا كان الانفجار هو سبب خلق الكون من لاشيء، فكيف يخلق الكون من لاشيء والانفجار شيء في ذاته؟ وهل يمكن أن يحدث الانفجار لو لم تتوافر أسبابه؟ وكذلك هل يمكن أن يحدث الانفجار لو لم يتوافر له مكان وزمان؟ وكيف يُقبل أنَّ الكون قد خُلق من لاشيء وفي الوقت ذاته يقال: إنَّه المنفجر من شيء سابق عليه يسمي الذّرة؟

وإذا سلمنا أنَّ ذلك المنفجر هو ما وُصِف بالذّرة، أو النّقطة الصّغيرة فكيف يصحُّ لبعض الفيزيائيين وصفها ذرّة وهم لم يتمكّنوا من معرفةٍ تمكّنهم من الوقوف عند أثرها، وبخاصّة أنَّ لحظة الانفجار لا بدّ أن تكون فاصلة بين المنفجر وانفجاره وما سيترتّب عليه لاحقًا؟

[20] المصدر السابق.

وعلى الرَّغم من هذه التساؤلات والافتراضات فإن اكتشافات العالم الفيزيائي كراوس قد أحدثت نُقلة في علم الفيزياء، وبخاصّة تعريفه اللاشيء الذي لم يعدّ لاشيئًا؛ كونه كما قال: "يعج بالجسيمات الافتراضيَّة، التي تظهر وتختفي من الوجود في فترات زمنية غاية في الصّغر، لدرجة أنَّه لا يمكن مشاهدتها"[21].

إنَّ قول كراوس: "إنَّ اللاشيء لم يعدّ لاشيئًا" هو بحقّ إضافة معرفيَّة لمعارفنا؛ لأنَّ اللاشيء لو لم يكن شيئًا، ما تحدثنا أو تساءلنا عنه، وإلّا هل يمكن لنا الحديث عن شيء لو لم يكن موجودًا؟ بمعنى: لو لم يكن اللاشيء موجودًا ما نفينا وجوده؛ ولهذا فالقاعدة العلميَّة تقول: (نفي اللاشيء يثبت وجوده شيئًا).

ومع ذلك فاللاشيء يُعدُّ المجهول المحيّر الذي تتوافر معطيات وجوده وهو لا يتوافر إلّا أثرًا دقيقًا، ممّا يُحفِّز البحاث على صياغة فروض أو تساؤلات علميَّة تستند على ما يتوافر من معلومات بهدف البحث عن الجزء المفقود منها، فالعالم كراوس انطلق من المشاهد الكوني إلى ما لم يكن مشاهدًا، حتى اكتشف أشياء متناهية الصّغر والدّقة، ولا يمكن رؤيتها بالمشاهدة العينيَّة، وعندما تقارن بالأشياء الظّاهرة للمشاهدة توصف بأنَّها لاشيء، أي: وكأنَّها لاشيءٍ.

[21] المصدر السابق.

إذن: فاللاشيء لا يعدُّ غير موجودٍ، بل يعدُّ غير مكتشفٍ، وغير مصنّفٍ، ومع ذلك فنحن مهما بلغنا من العلم نظل في حاجة للمزيد المعرفي حتى ندرك لا شيئًا، وندري به علمًا ومعرفةً: {وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا}[22].

وبما أنَّنا لم نؤتَ من العلم إلّا قليلًا إذن: فما نجهله من شيءٍ هو الأكثر؛ ولذا وجب البحث والتقصي العلمي الممكِّن من معرفة ما نجهله حتى يظهر اللاشيء للوجود شيئًا معلومًا وعن دراية.

إنَّ معرفة اللاشيء لا يقتصر على ما يمكن مشاهدته بالمناظير الدّقيقة، بل يمتدّ إلى ما يكتشف أثره، حتى وإن لم يخضع للمشاهدة، وفي هذا الأمر يقول كراوس: "على الرّغم من أنَّنا لا نستطيع رصد الجسيمات الافتراضيَّة مباشرة، فإنَّنا نستطيع قياس آثارها بشكل غير مباشر"[23].

ومن ثمَّ فاللاشيء على الرَّغم من وجوده فهو المجهول معرفةً، ويوصف اللاشيء بهذه الصّفة اللاشيئيَّة لأنَّه غير المميّز بخاصيّة منفردة، ممّا يجعل الشيء واللاشيء في موقع النَّكِرة؛ حيث انتفاء أو غموض الصّفة والخاصيّة والنّوع.

---

[22] الإسراء: 85.

[23] 'A Universe from Nothing: Why There Is Something Rather than Nothing' by Lawrence Krauss (Free Press; January 10, 2012

ولأنَّ الاختلاف من أجل المعرفة الواعية ظاهرة موضوعيَّة أصدر العالم لورانس كرواس حُكمًا مطلقًا بأنَّ: (الكون خُلق من لا شيء)، ولكن بهذا الحكم اختلف بعض العلماء معه، وبعضهم خالفه مخالفة تامّة، وفي اعتقادنا الاختلاف والخلاف على الشيء لا يلغيه، بل يُثبته شيئًا.

ولأنَّ اللاشيء كما يقول الفيزيائيون يمثل 99% من كتلة الكون فهل هذا اللاشيء هو مادَّة خلق الكون التي كما يقولون: خلق نفسه منها، أمّ إنَّ اللاشيء هو ذلك الذي ليس له وجود؟

وحتى لا يعلق في الأذهان شكّ أو ظنّ فإنَّ ما يقصده لورانس كراوس، بقوله: "الكون خُلق من لاشيء ومن دون خالق" هو أنَّ الكون قد أوجد نفسه من غير وجود سابق عليه، ومع العلم إنَّ كلمت (خُلق) في اللغة العربية تعني: أنَّه مخلوق من غيره، أي: ليس بخالقٍ لنفسه.

ومع أنَّ كراوس قد أصدر نظريتَّه: (كون من لاشيء)، فإنَّ السّؤال: كيف جاء هذا الكون العظيم من لاشيء في الوقت الذي يقول فيه: "إنَّنا نعيش في كون يسيطر عليه "اللاشيء"؟ وأكبر طاقة في الكون تشكل 70% من الطَّاقة الكونيَّة، التي هي موجودة في الفضاء الخالي، ونحن لا نمتلك أيَّة فكرة عن سبب وجودها هناك"[24].

ومن هنا وجب فكّ اللبس والغموض الذي تثيره نظريَّة العالم الفيزيائي لورانس كراوس بقوله: "إنَّنا نعيش في كون يسيطر عليه

[24] المصدر السابق.

اللاشيء"، وفي الوقت ذاته يقول: "خُلق الكون من لا شيء"، ثمّ يقول: "لا يعدُّ في علم الفيزياء اللاشيء بعد الآن لا شيئًا"[25].

وإذا كان اللاشيء يسيطر على الكون، وأنَّ اللاشيء هنا هو: المكتشف الذي تعرّف عليه كراوس، والذي قال عنه: "لا يعدّ في علم الفيزياء اللاشيء بعد الآن لا شيئًا" فكيف لنا بقبول ذلك، وهو قد أسّس نظريَّته على قاعدة: (كون من لا شيء)؟

فالكون لو خُلق من لا شيء فلا يمكن أن يسيطر عليه اللاشيء، وهو في هذا الأمر كمن يقول: خُلق الإنسان من تراب والتراب يسيطر عليه، مع العلم لو سيطر التراب على الإنسان لما كانت للإنسان صورة إلَّا جدارًا.

ومع أنَّ نظريَّة كراوس تأسّست على: "كون من لاشيء" فإنَّها تتحدث عن الشيءِ "الكون" المملوء بالأشياء (دقيقها وعظيمها)، وهي التي لا ترى خالقًا للكون.

وإذا سلّمنا بهذه المقولات المتناقضة فإنَّنا كمن يقول: خُلقت تلك الذّرة من تلك الذّرة، وخُلقت الأرض من الأرض، وخُلقت السّماء من السّماء، وخُلق الماء من الماء، وخُلق الإنسان من الإنسان!

[25] المصدر السابق.

إنَّ خلق الكون من لاشيء وفقًا لتعريف كراوس يعني: أنَّه خُلق من شيء متناهٍ في الدّقة، وقد ترك أثرًا، ولكن إذا أجزنا هذا؛ فمن أين جاء ذلك اللاشيء المتناهي في الدّقة؟ أي: فمن أين خُلق ذلك الشيء السّابق على خلق الكون والذي يملأه لا شيئًا؟

فنقول: يعدُّ اللاشيء ما نجهله ونسعى لمعرفته، واكتشاف أسراره، وسيظل أمره محيّرًا للباحثين حتى يتمّ اكتشافه، وتقصّي الحقائق المخفيّة وراءه، ومعرفتها عن بيّنة ودراية؛ من أجل إضافة شيءٍ جديدٍ لمعرفة اللاشيء الذي يملأ الكون ظُلمة وعتمة.

أمَّا قول كراوس: "إنَّ معرفة الجواب لا تعني شيئًا، ولكن اختبار المعرفة يعني كلّ شيء"[26]. فأمره جدلي؛ كونه لا يرتبط بمسلّمة علميَّة، وبتحليل مفهوم المقولة: "معرفة الجواب لا تعني شيئًا" نعرف أنَّ المفهوم المقابل لها هو: "عدم معرفة الجواب تعني شيء" ونحن نرى أنَّ الجواب شيء، ومعرفته شيء آخر؛ ذلك لأنَّ الجواب يتمدّد في دائرة الممكن في الحيّز (مِن..... إلى) ممّا يجعل (مِن) الطّرف المرسل للإجابة وهو: الذي يعرفها، ويجعل من الطّرف (إلى) اتجاه الهدف، أو الطّرف المستقبل للإجابة وهو: الذي يجهلها، وفي كلتا الحالتين: الجواب شيء، ومعرفته شيء آخر، ولكن من حيث الأهمية: الذي تتوافر لديه معرفة الإجابة مسبقًا لن يضاف إليه شيء؛ لكونه مصدر المعرفة، وفي المقابل الذي

[26] المصدر السابق.

عرف الإجابة بعد أن كان يجهلها فقد عرف شيئًا جديدًا، ومن ثمَّ فالطّرف الذي يعرف الإجابة لن يعرف شيئًا جديدًا؛ ممّا يجعل محصّلته: (لاشيء)، أمّا الذي لم يكن يعرفها ثُمّ تحصّل عليها فقد عرف شيئًا.

وفي كلتا الحالتين السَّابقتين، التوقّف عند حدّ معرفة الجواب يعني: (اللاشيء)، ولكن الذي يعني شيء هو: معرفة الشيء في ذاته، وكيف خُلق ذلك الشيء: {أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ}[27]، يفهم من هذه الآيات عدم وجوبيَّة التوقّف عند حدّ خلق الأشياء التي منها: (الإبل، والسّماء، والجبال، والأرض)، فمع أنَّ هذه المخلوقات أشياء عظيمة، لكنّ الشيء الأعظم معرفة الكيفيَّة التي خُلقت عليها الإبل، والكيفيَّة التي بها رفعت السّماء، والكيفيَّة التي بها نصبت الجبال، والكيفيَّة التي بها سُطحت الأرض، فهذه الكيفيَّات الخلقيَّة تستوجب الانتقال درايةً معرفيّةً من الشيء المشاهد (الصورة) إلى الكيفيَّة التي بها وعليها خُلقت الأشياء، ومن ثمّ تصبح معرفة الشيء أيسر بكثير من معرفة الكيفيَّة (اللاشيء).

ومع أنَّ الدِّراية باللاشيء عظيمة، فإنَّ معرفة الشيء أيضًا ضرورة ذات أهميَّة عالية؛ لأنَّنا لو لم نعرف الشيء عن بينة واختبار ما اكتشفنا اللاشيء دراية، ومن هنا فالمعرفة شيء، واختبارها شيء آخر، ولكلٍّ

[27] الغاشية: 17 . 20.

أهميَّته، أمَّا القول: بأن "اختبار المعرفة يعني كلّ شيء" فلا يؤخذ بالمطلق، ولكن في دائرة النّسبيَّة ما يبدو لك مهمًّا قد لا يبدو لغيرك.

وإذا أجزنا مقولة العالم الفيزيائي كراوس: "اختبار المعرفة يعني كلّ شيء" فلا بدّ أن نُخضع ما قاله عن خَلق الكون من لاشيء إلى الاختبار والتجربة قبل أن نأخذ بمقولته، ولكن هذا ضرب من المستحيل؛ إذ لا إمكانيَّة لإخضاع الكون للاختبار والتجريب، فهذا الأمر يتعارض مع القاعدة الخلقية: "المحاط لا يحوط محيطه"؛ فعلى سبيل المثال: الزّجاجة المملؤة ماء، تظل محيطة للماء الذي يملأها، ولكن أن فرّغت منه وترك أمره حرًّا؛ فلا إمكانيَّة للماء أن يحوطها وهكذا: (كلّ شيء) أو (لا شيء) محاط لا يمكنه إحاطة ما يحوطه.

وبما أنَّ الكون كما يراه الفيزيائيَّون يبدو مُسطّحًا، ويتمدّد متسارعًا في كلّ الاتجاهات، إذن: فلن يرسمَ بعدُ هيكلٌ واضحٌ للهيئة التي ينبغي أن يكون عليها كونًا.

وكذلك إذا كان الكون غير مكوّر فلا يمكن لأحدٍ أن ينظر أمامه ليرى مؤخرة رأسه، فهذه لا تتمّ إلّا على سطح الأرض المكوّرة، لكن الكون حتّى وإن افترضناه مكوّرًا ونحن في قلبه فلا إمكانيَّة لرؤية ما على سطحه، حتى وإن كانت مؤخرات رؤوسنا.

ولأنَّ علماء الفيزياء يتحدّثون عن كونٍ منفجر ومتمدّدٍ، فهم يتحدّثون عن شيء معلوم الدّلالة، وغير معلوم الكيفيَّة، فهو معلوم

الدّلالة من حيث خضوع كثير من مفرداته إلى المشاهدة والملاحظة، أمَّا كونه غير معلوم الكيفيَّة فهو من حيث لا أحد يعلم كيفيَّة خلقه، ولا لحظتها، بل أصبح علماء الفيزياء يقرّون بوجود أكوان غير الكون الذي نعيش في قلبه، ممّا يدعو إلى القول: بأنَّ كوننا بما فيه من شيء ولا شيء، فهو شيء عظيم يدلّ وجوده على وجود أكوان أخرى نحن لا نعلم كيفيتها؛ حيث لا شيء يشاهد، ومع ذلك فإنَّنا دراية نعلم بوجودها كما نعلم بالسَّاعة التي لا نعلم بساعتها ولن.

ولكن إن تمكّن عقل الإنسان من اكتشافها دراية؛ فسنرى شيئًا أعظم: {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ}[28]، فماذا يعني قوله: {سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ}؟ تعني: سبعة أكوان: {أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا}[29]، هذه الآية تؤكّد أنّ السّبعة أكوان هي أطباق فوق بعضها متوازية الوجود؛ حيث لا تماس، ولا اصطدام، كلّ في فلكه بين متمدّدٍ ويتمدّد وكأنه في الفراغ وحده يسبح.

ولأنَّ الأكوان خُلقت: (سماوات وأراضي) فسيظل اكتشافها في دائرة الممكن بين متوقَّع وغير متوقَّع؛ ولهذا أصبحت المؤشّرات بين أيدي علماء الفيزياء تدلّ على وجود أكوان خارج نطاق كوننا.

---

[28] الطلاق: 12.

[29] نوح: 15.

ومع أنَّ عالم الفيزياء كراوس لم يتمكّن من معرفة أيّ نوع من الأكوان هو كوننا، فإنَّه أصدر حكمًا بأنَّ الكون قد خلق نفسه من لاشيء، وهنا أتساءل:

كيف يمكن له أن يحكم على الكون بأنَّه مخلوق من لاشيء، وفي الوقت ذاته لا يعرف ما يميّز الكون الذي يعيش فيه عن بقية أنواع الأكوان الأخرى؟

ولأنَّ لورانس قال: (خُلق الكون من لاشيء) فهو يرى لا ضرورة لوجود إله يخلقه، ولكن إنْ سلّم البعض بذلك؛ فالسؤال:

هل كلّ كون قد خُلق من لا شيء كما هو حال الكون الذي نظّر له كراوس؟ أم إنَّ كوننا فقط هو الذي خُلق من لاشيء، وبقيَّة الأكوان من ورائها خالق؟

وكيف لنا قبول ذلك والعالم الفيزيائي يقرّ في نظريتَّهِ: (كون من لاشيء) بأنَّه لا استطاعة لرؤية الانفجار العظيم؛ حيث وجود جدار عاتم يمنع مرور الضوء عبره؟[30].

ومن ثمَّ ألا يكون هناك تناقض كبير بين قوله: "كون من لاشيء"، وقوله: "لا إمكانيَّة لمعرفة بداية خلق الكون من لاشيء"؟ وإذا لم يتمكّن

[30] New Mystery of Invisible Matter Generated by Cosmic Collision, www.space.com, 17 August 2007.

من بلوغ نقطة بداية خلق الكون، فكيف لنا بحكم قاطع يقرُّ خلق الكون من لاشيء؟

أي: كيف لنا أن نقرّ بخلق الكون من لاشيء، ونحن متيقنين بأنَّه لا إمكانيَّة لبلوغ نقطة البداية، التي قد تُمكّن من معرفة ما إذا كان الكون قد خُلق من لا شيء، أم أنَّه قد خُلق من شيءٍ؟

ومع ذلك يقول العالم كراوس: "نحن نعلم بدقة 1% أنَّ الكون مسطّح، ولديه طاقة كلية تساوي الصّفر؛ ولذلك يمكن للكون أن يوجد من لاشيء، ومن تلقاء ذاته"[31].

عالم لا يمتلك من الحجّة إلّا 1% وبها يحكم حكمًا مطلقًا على أنَّ الكون خُلق من لاشيء فهل يمكن أن تُجاز هذه الحُجّة وهي تفتقد 99% من الحقيقة؟

وفقًا لهذه النّسبة العالية التي تجيز عظمة اللاشيء أمام الشيء، يقول كراوس: "لو أزلنا من الكون كلّ شيء يُرى من نجوم ومجرّات وحشود مجرية فالكون لن يتأثر عمليًّا[32] يدلّ هذا النصّ: على أنّ اللاشيء هو الصّفة الغالبة على وجود الكون وبخاصّة أنَّ كلّ الكون المرئي يمثل 1%

[31] المصدر السابق.

[32] المصدر السابق.

في كون يحوي على 29% مادة معتمة، 70% طاقة معتمة، وبذلك ليست لنا قيمة على الإطلاق[33].

عالم يرى قيمة الإنسان مادّة لا بدّ له أن يحكم بانعدام قيمته، ولكن لو قَلبَ الإنسان الصفحة في أيِّ اتجاه من اتجاهات القراءة السليمة ليقرأ دراية قوله: {صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ}[34]، لأمكن له أن يتذكّر، ويتدبّر، ويفكّر، ومن ثمّ لأمكن له الأخذ بما يجب والانتهاء عمّا يجب، وهنا تكمن قيمة الإنسان وعظمة الخالق.

وجود الشيءِ:

الشيء دراية عقليَّة علم يقين؛ إذ الحقيقة بين يديك منزَّلة تنزيلًا مما يجعل للشيء دلالة وجوديَّة تشير إلى المشاهد، والملاحظ، والمدرَك، ومع ذلك يعدُّ الشيء نكرة حتى يصنَّف، ولا يكون شيئًا إلَّا بفعل المشيء، ومن ثمَّ فلا شيء إلَّا والكينونة تسبقه خلقًا؛ أي: لا شيء إلّا من بعد كينونة (هيئة) يكون عليها قبل أن يكون على الصورة شيئًا.

[33] المصدر السابق.

[34] النمل: 88.

ولأنَّه لا شيء إلّا على هيئة فكيف تهيأ الشيء كونًا قبل أن يكون شيئًا من لاشيءٍ؟

التهيؤ للشيء لا يكون إلَّا عن علمٍ ودراية، وهذه لم تكن من مكوّنات الشيء، بل من مسبّبات وجوده، فلو لم تكن سابقة عليه ما تهيَّأ اللاشيء والشيء معًا شيئًا، ومع ذلك علينا أن نميِّز بين هيئة، ومهيئ، ومتهيء، ولتبيان ذلك أقول:

. الهيئة: هي القالب المجرد لما يمكن أن يكون عليه الشيء قبل أن يكون شيئًا، أي: إنَّها قالب الأشكال والصّور التي ستكون عليها أشكالًا وصورًا؛ فالهيئة هي ما ينبغي أن تكون عليه صورة الشيء أو شكله المادي قبل أن تكون الصّورة أو الشكل. والهيئة مثل الفكرة في عقل المفكّر أو الصانع والمصمم للأشكال والصور.

. المهيئ: هو من يعلم أمر الهيئة، ويجعل لها صورة قبل أنْ تصير شيئًا مفعولًا.

. المتهيئ: هو اللاشيء: (طينة التخلّق)، التي منها يُخلق الشيء، وبها يُميّز حتى يصبح على الهيئة شكلًا وصورة.

وعليه: فقاعدة خلق الشيء: (لا شيء إلّا على مشيئة، ولا مشيئة إلّا من مشيء): {يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ}[35]، {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ

[35] البقرة: 105.

النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ}[36]؛ فهذه من مشيئة الخالق التي من خلالها ندري أنَّه يعلم ما لا نعلم.

ولهذا فالهيئة تصوّر تام للكينونة التي سيكون الشيء عليها قبل أن يكون شيئًا، والقاعدة: (المهيئ يسبق الهيئة).

وبما أنَّ الهيئة هي التي يُصوّر الشيء عليها فهي لا تصوّر إلّا بفعل المهيئ، والقاعدة: (الهيئة تسبق المهيَّأ).

ولأنَّ الشيء لا يكون شيئًا إلّا على هيئة تسبقه؛ فالقاعدة: (الشيء يُفعل ولا يَفعل)، ومن هنا فالشيء نكرة لو كان يَفعل لخلق نفسه من لاشيء قبل أن يكون شيئًا، وهذا ما يراه كراوس، ونحن نرى لاشيء إلّا بفعلٍ، ولا فعل إلّا من فاعل، ولأنَّ الشيء يفتقد قوَّة الفعل وإرادته، إذن: فكيف له بخلق نفسه؟

وحتى لا يكون حوارنا سفسطائيًّا فهل يمكن أن يوجد الكون (الشيء) بغير إرادة؟ أي: هل يُخلق شيء أو يُصنع عن غير دراية؟ وهل يمكن أن يُخلق شيء أو يصنع عن غير هيئة؟ ثمّ هل يُخلق شيء من غير مادّة لخلقه؟ وهل يُخلق شيء في غير مكان وزمان؟ وهل المكان والزَّمان من مكوِّنات الكون (الشيء)، أمْ أنَّهما المحتويان وجوده؟

[36] هود: 118 . 119.

وبما أنَّ الشيء يفتقد لكلّ هذا فهو بلا شكّ لا يمتلك صفة الخلق، ولأنَّه يفتقدها فلا يكون إلَّا ومن ورائه خالق: (وراء كلّ مخلوق خالق).

ولو أخذنا خلق الإنسان كمثال: فهل الإنسان خَلق نفسه؟

لا خلاف على أنَّه لم يخلق نفسه، وبما أنَّ الإنسان لم يخلق نفسه حتى من شيء فكيف للبعض أن يقبل بخلق الكون نفسه من لاشيء؟

وحتى لا نذهب بعيدًا، ويتمّ التمسّك بخلق الكون من لاشيء فالأرض التي هي أقرب وجودًا من وجودنا، ممّ خُلقت؟

لا شكّ أنَّ الإنسان قد خُلق من الأرض وهذا يعني: أنَّه خُلقَ من شيءٍ، ولأنَّ الأرض قد خُلقت بعد الانفجار العظيم بآلاف السِّنين، فكيف خُلقت؟ وما الذي كان وراء خَلقها؟

فهل كانت الرَّغبة هي التي وراء خلقها، أم الضّرورة، أم المشيئة، أم ماذا؟ وإن خُلقت هي الأخرى من لاشيء فما هو ذلك اللاشيء الذي خلقت منه؟ وهل هو بالتمام مثل ذلك الشيء الذي خُلق الكون منه، أم أنَّه اللاشيء آخر؟ وإن كان الآخر، فما العلاقة بينه وذلك اللاشيء الذي تفجَّر معه، أو تفجَّر قبله؟

وإذا عرفنا كيف جاء اللاشيء الذي خُلقت الأرض منه فهل لنا بمعرفة كيف جاء اللاشيء السَّابق عليه؟ ثمّ هل يمكن أن نقف على اللاشيء إنْ لم يكن هناك لا شيء؟

كلُّ هذه الأسئلة ستكون متَّصلة إلى النِّهاية، ولكن مَنْ الذي أوجد النِّهاية؟

ستكون الإجابة بالطبع الذي أوجد البداية، وهنا تكمن الإجابة، وهي: لكلّ شيء بداية ونهاية، ومن ثمّ فلا بداية لشيء إلّا مشيئة الخالق، ولا نهاية لشيء إلّا مشيئة الخالق: {هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ}[37]؛ لأنَّه الفعَّال لما يريد: {كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ}[38].

وإذا كان الكون قد خُلق من لاشيء، فهل كان ذلك اللاشيء وجودًا، أم أنَّه لا وجود؟ فإن كان وجودًا فمن الذي أوجده؟ وإن لم يكن وجودًا، إذن فكيف خَلَقَ الكون وجوده عن غير وجود؟

ولذا فالشيء لو لم يكن وجودًا ما تساءلنا عنه، ولأنَّنا نتساءل عن وجودٍ، فالوجود لا يكون إلَّا بفعل فاعل: (بخلق خالق) وخالق الشيء:

- لا يمكن أن يكون شيئًا.
- لا يمكن أن يكون لاشيئًا.

---

[37] الحديد: 3.

[38] الأنبياء: 104.

. ولا يكون شيئًا آخر.

ولذلك فخالق المادّة لا يمكن أن يكون مادّة، وخالق الرّوح لا يمكن أن يكون روحًا، فالخالق لا يكون إلّا خالقًا، (الخالق يَخلق ولا يُخلق)، يُبدِعُ ولا يُبدَعُ: {بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}[39].

والشيء وإن كان نكرة، فلا بدّ وأن تكون له صفة تميّزه، ومتى ما تمّ التعرّف على صفته أصبح الشيء المنكّر معرفة، فالشيء يُطلق على أيّ شيء مادّي أو غير مادّي، ولكن عندما يحدّد الشيء مثل السّماء يصبح اسم السَّماء يدلُّ على شيء دون غيره، وحينها لا تكون السّماء نكرة.

وهكذا فأيّ حديث عن أيٍّ شيء غير موصوف هو حديث مُنكَّر، ولكن بتحديد المكان والزّمان والدّلالة والمعنى للشيء، يصبح الشيء غير منكّر، ونأمل ألَّا يَفهم البعض أنَّ الشيء لا يرتبط إلّا بالمشاهد والمحسوس، بل دلالة الشيء تمتدّ من المفهوم والمعنى إلى الفعل والهيئة والشّكل والصّورة: {وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ}[40]، وكلّ شيء خُلِق يحاط ولا يحيط: {وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ}[41].

---

[39] البقرة: 117.

[40] الأنعام: 101.

[41] البقرة: 255.

وعليه: فالقاعدة المنطقيَّة وفقًا لمنطق أرسطو تقول:

-كلّ شيء مخلوق.

-الكون شيء.

إذن: الكون مخلوق.

وبما أنَّ الكون شيء؛ فالشيء لا يكون إلّا مخلوقًا، ولا يكون إلّا في حيزٍّ، ولا يكون إلّا محدودًا حتّى وإن تناهى في الصِّغر أو الكبر، والشيء حتى وإن أحاط بشيء آخر لا يكون إلّا محاطًا: {وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ}[42].

فوسِع كرسيُّه، تعني: وسِعت إحاطته، أي: وسِعت إحاطة الخالق الأكوان (سماوات وأرضين)، والكرسي هنا، هو كرسي السّعة والإحاطة الاستيعابيَّة، وليس كرسي الجلوس فهو يدُلُّ على خلق محيط لإحاطة الأكوان جميعها، مما يشير إلى أنَّ الأرضَ جزءٌ من كوننا، وكوننا جزء من الأكوان المحاطة بالكرسي، وهو المخلوق لاحتواء الأكوان: {صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ}[43].

وكما سبق تبيانه في تعدّد الأكوان وما توافر من دلائل علميَّة لدى علماء الفيزياء والفلك، فإنَّ بيِّنة الخالق دراية تدلّ على وجودها يقينًا:

---

[42] البقرة: 255.

[43] النمل: 88.

{لَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ}[44]؛ فالسَّبعة الطرائق، هي: الأكوان التي فوق الكون الذي نحن جزء منه، (وسبعة أكوان فوقكم)، تشير إلى علو الأكوان السّبعة المرتّبة طباقًا فوق بعضها البعض، وهي فوق الكون الذي نحن جزء منه، ولكن العلو لا يقتصر على علو المكان أو الحيّز، بل يدلُّ على علو المكانة أيضًا.

ولهذا جاءت الطرائق بمعنى الخصوصيَّة والتميُّز في كلِّ كون من الأكوان السَّبعة التي تعلو كوننا الذي هو الآخر يتميَّز بخصوصيَّته: {الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا}[45]. تؤكّد هذه الآية أنَّ السَّماوات السّبع هي الأكوان التي فوق كوننا، وكلّ كون منها منفصل عن غيره، ولا يتجاوز الطبق الذي خُلق فيه؛ ولذا فكلمة طباق تدل على العناية والرّعاية والتنظيم المصنّف لكلّ كون، وهذا ما لم يتمكّن علماء الفيزياء والفلك من بلوغه، على الرَّغم من أنَّهم أصبحوا متيقّنين من تعدّد الأكوان وما كوننا إلّا أحدها، والأكوان المتعدّدة تسمى أحيانًا بالأكوان المتوازية[46].

وعليه، فالقاعدة وفقًا لمنطق أرسطو تقول:

---

[44] المؤمنون: 17.

[45] الملك: 3.

[46] Have cosmologists lost their minds in the multiverse? May 13, 2014 by Luke Barnes, The Conversation.

-كلُّ شيء محاطٌ لا يحيط بمحيطه.

-الكونُ شيءٌ محاطٌ.

إذن: الكونُ لا يحوط محيطه.

وكذلك القاعدة المنطقيَّة تقول:

-كلُّ محاطٍ مخلوقٌ.

-الكونُ محاطٌ.

إذن: الكونُ مخلوقٌ.

وعليه: بما أنَّ للكون محيطًا، فهو شيء، ولأنَّه المحاط فمحيطه شيء آخر.

ولأنَّ الكون شيء، ومحيطه شيء آخر، إذن: فكيف (خُلق الكون من لاشيء)؟

وكذلك: فإذا كان ذلك الانفجار هو شيء عظيم، ألا يكون المنفجر شيء أكثر عظمة؟ وإذا كان الانفجار شيء والمنفجر شيء آخر فكيف يمكن لنا أن نقول: (خُلق الكون من لاشيء)؟

وهل ذلك الشيء المنفجر يمكن له أن ينفجر لو لم تُخلق فيه معطيات الانفجار؟ وهل الانفجار لو لم يزمَّن له وقت، يمكن أن يبلغ

لحظة انفجاره؟ أي: هل ينفجر المنفجر لو لم يكن مؤقتًا؟ وهل يمكن أن ينفجر شيء في غير مكان وزمان؟

وبما أنَّه قد انفجر، ألا يعني ذلك أنَّ انفجاره بفعل الفعّال؟

ولأنَّه لا شيء إلّا ومن ورائه مشيء، ألا يكون المشيء أعلم بأمر المنفجر من الذي عَلِمهُ؟ {وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ}[47].

ومن ثمّ فالقاعدة المنطقيَّة تقول:

-وراء كلّ شيء مشيء.

-الانفجار الكوني شيء.

إذن: وراء الانفجار الكوني مشيء.

ولأنَّ وراء ذلك الانفجار الكوني مشيء، إذن: لو لم يشأهُ المشيء كونًا ما كان انفجاره لحظة الولادة[48].

ولأنَّ الانفجار الكوني وُصِفَ بأنَّه عظيم، فهل يمكن أن يكون انفجارًا عظيمًا لو لم يؤسّس على قانون؟ وهل يمكن أن يكون القانون لو لم يسبقه مقنّن: {وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ}[49].

---

[47] يوسف: 76.

[48] عقيل حسين عقيل، العقل (من اللاشيء إلى الشيء دراية)، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2021م، ص 77 – 86.

[49] المعارج: 41.

الوجودُ البشري خلقًا:

خلق الوجود البشري مثله مثل المخلوقات الأخرى، التي أوجدها الله على قيد الحياة عندما كانت السَّماوات والأرض رتقًا، ثمّ تغيَّرت أحواله بعد أن أُهبط به ومن كان معه من الهابطين على الأرض التي فُتقت من السّماء بعد أن كانت بها رتقًا؛ ومن هنا أصبح الإنسان وبقيّة الخلائق على قيد الوجود الأرضي بين موتٍ وحياةٍ، وسيظلون ملاحقين من الموت الذي يحوّلهم إلى عدمٍ، ولن ينفكوا منه إلى يومٍ يبعثون.

والخلائق وإن تنوّعت فالخَلق واحد، والخالق واحد؛ ومع ذلك كان خَلقهم على كينونة التميُّز والاختلاف؛ مما جعل التنوَّع والتعدد والتكاثر بينهم بداية ونهاية.

أمَّا خصوصيّة خَلق الإنسان فقد ميّزه الله بقوله: {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ}[50]، والتقويم هنا يعود إلى جودة المادَّة التي خُلق الإنسان منها، وهي الصلصال الذي لا شبيه لطينته إلَّا طينة الفخار؛ ولذا ظهر حُسن الخَلق في حُسن الهيئة والصّورة والمقدرة على الاختيار بين ما يجب عن بيّنة وما لا يجب عن بيّنة، وهذا لا يعني أنَّه

[50] التين: 4.

كما يقولون ميّزه الله بالعقل؛ ذلك لأنَّ المخلوقات كلَّها تعقل وتدرك، ولو لم تعقل لما سبّحت بحمد لله تعالى، وهذه من أسرار الغيب الذي لا يعلم أسراره إلَّا الله؛ فالذي يُسبِّح اليوم ومن يكون ذلك المسبّح، هل يا ترى أنَّه هكذا يُسبِّح بلا غرض ولا غاية، أم أنَّ من وراء تسبيحه غاية ومن ورائها مأمول عظيم يأمل أن يفوز به في مرضات من يُسَبِّح باسمه؟

لا شك أنَّ الغاية ستكون لمستقبلٍ يدركه المسبِّح، الذي نحن لا ندرك تسبحه؛ ومن هنا فكل المخلوقات تسبِّح باسم خالقها بلا تردد إلَّا الإنسان فيه من التردد ما فيه، فالإنسان لو كان متميّزًا بالعقل كما يقولون؛ لكان أوَّل السَّالكين طاعة وتسبيحًا؛ قال تعالى: {سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِن مِّنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا}[51]؛ فقوله: {وَإِن مِّنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ} جاء هذا القول العظيم ليؤكِّد بلا استثناء أنَّه لا شيء إلَّا ويسبِّح بحمد الله، ومفهوم الشيء كما سبق تبيانه جاء مطلقًا (أيّ شيءٍ) حتى وإن لم يكن غير خاضع للمشاهدة والملاحظة والاستماع، وحتى إن كان عابرًا، مثل عبور البرق والرَّعد والمطر، الذين نراهم، وأصواتهم في أذاننا لا تفارق وإن غابت عنَّا.

[51] الإسراء: 43، 44.

ولذا فلو لم تكن المسبّحات كلّها عاقلة ما أدركت أهميَّة التسبيح بحمد الله، وفي المقابل بني الإنسان الذين خُلقوا في أحسن تقويم مِن بينهم مَن أمن وسبَّح ويسبِّح، ومِن بينهم مَن يتردّد ويكفر ويشكّ ويشرك؛ ومن هنا فأيّهم أعقل: الذي سلّم أمره لله وحده، أم الذي لا يرى للكون خالق؟ أم يود البعض أنَّ يقول: إنَّ كل شيءٍ خُلق مسيّرًا على الطَّاعة والتسبيح، أمَّا نحن على غير ذلك فقد خُلقنا على التخيير؛ ومن هنا، فلنا الحقّ في الشّرك والكفر وغضّ النّظر عن الحقائق وإنْ كانت ماثلة أمامنا؟

أقول: إذا سلَّمنا بذلك لا شكّ أنَّنا سلّمنا بإنكار الحقيقة وهي الماثلة أمامنا؛ **ومن هنا أقول للحقيقة**: لا تنزعجي، ولا تقلقي، ولا تشكّي، ولا تكفري، ولا تشركي؛ فامتثالك أمام الأعين ووجودك بين الأيدي ليس في حاجة لمن يثبت وجودك حقيقة.

وأقول للحقيقة أيضًا: لا تشكّي في الأمر؛ فإنَّ العقلاء وحدهم يعترفون بكِ، وبك يسبِّحون ويحمدون أنَّهم يعقلون أكثر من الذين يظنّون أنَّهم المتميزون عقلًا، ثمَّ أقول: يا حسرتاه على عقولٍ لا تُدرك أنَّ التسبيح بحمد الله أعظم من الغفلة عنه والكفر به والشّرك؟

ولا استغراب أن يكون البعض ما زال يرى أنَّ تلك المسبِّحات كلّها هي الغافلة عن الحقيقة ومعرفة الغاية من التسبيح، وأنَّه وحده دون غيره يعرف ويعقل.

إذا أجزنا ذلك بدون شكّ اعترفنا بأنَّ الإنسان غير متميّزٍ بالعقل عن غيره من الخلائق؛ فلو كان متميّزًا لما أنكر الحقيقة التي تقول: كل مخلوق من ورائه خالق، والخالق دائمًا أعظم من المخلوق؛ ومن ثمَّ فالذي ينكر الحقيقة كمن ينكر وجود عقله وهو به يتباهى ويجادل.

وأقول: مع أنَّ الله قد أحسن صُنع خَلقه كُلّه، فإنَّ خَلقه للإنسان كان في أحسن تقويم، أي: أحسن صُنع (هيئة وصورة)، ثمَّ خَلقهُ على التسيير والتخيير؛ فهو المسيّر وفقًا لتسيير الكون المتسارع في تمدّده وهو لن يستطيع أن يغيّر مجراه ولا تمدده، ولا يستطيع إيقافه، أو الحدّ من سرعته، وكذلك لن يستطيع ردّ الموت عنه.

ولسائل أن يسأل: **لماذا ميّز الله الإنسان بأحسن تقويم، ثمَّ جعله في مرضاته –جلَّ جلاله–مخيَّرًا؟**

أقول: مع أنَّ الله جعل الإنسان مخيّرًا في أحسن تقويم فإنَّ البعض اختار ألَّا يكون اختياره في مرضاته تعالى، فكفر من كفر، وأشرك من أشكر، وظلم من ظلم، وأفسد من أفسد، وهكذا أكثرهم لا يعقلون: {وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ}[52]، وقال تعالى: {وَمِنْهُم مَّنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ}[53]، وقال: {وَلَئِنْ سَأَلْتَهُم مَّنْ

[52] المائدة: 103.

[53] يونس: 42.

نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ}[54].

وعليه: ولتبيان أهميّة العقل والتميز به من عدمه أقول:

الوجود العقلي دراية:

العقل دراية مقدرة واسعة تكشف العلاقة بين السّماوات والأرض؛ من خلال استيعاب المعجز، ومعرفة المستحيل، والبحث الممكِّن من اكتشاف المتوقّع وغير المتوقّع؛ فالعقل دراية وارتقاء قيمة تفضيليَّة خصّ الله بها الإنسان خَلقًا وخُلقًا؛ فهو في خَلقه كان في أحسن تقويم، أمَّا في خُلقه فينبغي أن يكون على الفضائل الخيّرة التي فضّلها الله، وعلى القيم الحميدة التي ارتضاها النَّاس: {أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ}[55].

نعم. إنَّه التفضيل للإنسان الذي يمشي سويًّا على صراطٍ مستقيم، والذي شاء الله أن يكون خليفته في الأرض؛ ولذا فالفرق كبير بين من يمشي مكبًّا على الأوجه ومن يمشي سويًّا (مقوّمًا)؛ ذلك هو أمر الخالق ومشيئته التي شاءت التفضيل لمن يمشي سويًّا على غيره من المكِبّين؛ إنَّها

[54] الأنعام: 63.

[55] الملك: 22.

الفضيلة الباقية التي لا تتبدّل؛ كونها صُنع الخالق، أمّا المتبدّل فهي الأخلاق التي لا تكون إلَّا بيد المخلوق المخيَّر.

ولذا فلا إمكانيَّة لتلك المخلوقات المكِبّة والزَّاحفة أن تتطوّر وترتقي كما يظنّ بعض البحّاث لتصبح غير زاحفة، أو غير مكبّة الأوجه، وفي المقابل يمكن للإنسان الذي يمشي سويًّا أن ينحدر خُلقًا فيضل ويظلم ويعتدي بغير حقّ، ومع ذلك فلن ينحدر خَلقًا، أي: يُمكن أن تصبح أخلاق الإنسان سُفليَّة ودونيَّة، أمَّا خَلقه فسيظل في أحسن تقويم، ولن يتبدّل؛ ذلك هو صُنع الله، الذي ينبغي ألَّا يكفر به ولا يشرك.

ومع ذلك فالإنسان لم يُخلق على الكمال؛ إنَّه الإنسان الذي خُلق مسيَّرًا ومخيَّرًا (يصيب ويخطئ)، وبين هذا وذاك يستغفر فيُتاب عليه.

ولأنَّ الأخلاق لا تخرج عن دائرة الممكن رُقيًّا فلا استغراب أن يحدث الخطأ، بل الاستغراب ألا يصحّح ولا يقوّم، كما صحّحه أبونا آدم، وقوّمه ساعة حدوثه، وساعة كشف علله دراية: {فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ}[56]؛ لأنَّ الكلمات الصّائبة تصحّح الأخطاء الواقعة دراية تامَّة، وهذه تتعلّق بارتقاء الأخلاق ولا تتعلّق بالخَلق الذي لا يتبدّل.

ومن ثمّ في دائرة الممكن المتوقَّع وغير المتوقَّع لا بدّ وأن يقع الإنسان في الخطأ، أمَّا الاستثناء في دائرة الممكن ألَّا يُصحح؛ ولهذا أخذ أبونا آدم

[56] البقرة: 37.

بالقاعدة، وهي: متى ما وقع الخطأ وجب التصحيح الذي يوجب تصحيح المعلومات الخاطئة بالمعلومات الصّائبة دراية.

وعليه:

فالارتقاء قيمة خُلِقَ الإنسان عليها من طين الجنّة عندما كانت الأرض مرتقة في السّماوات: {أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا}[57]؛ ولأنَّ الإنسان الأوّل خُلق من تراب الأرض المرتقة في السّماء جنّة، كان خَلقهُ في أحسن تقويم: {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ}[58].

ولذا فأساس خَلق الإنسان التقويم الحسن دلالة ومعنى وصورة، أمَّا الاستثناء ألَّا يحافظ الإنسان على حُسن التقويم الذي خُلق عليه خَلقًا، وهذا ما حدث مع أبينا آدم عندما لم يأخذ بما أُمِرَ به وهو: ألَّا يأكلّ من تلك الشّجرة: {وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ}[59].

---

[57] الأنبياء: 30.

[58] التين: 4.

[59] البقرة: 35، 36.

ومن هنا جاء انحدار أبينا آدم عوضًا عن الارتقاء الذي خُلق عليه خَلقًا: {ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ}[60]؛ حيث الهبوط على الأرض التي فُتقت من السّماوات فأصبحت أرضًا دنيا إذا ما قورنت بما بقي في علوٍّ (في السّماء)، ولكن آدم الذي خُلق على حُسن التقويم بعد الدراية تدارك أمره فاستغفر ربّه؛ فتاب عليه: {فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ}[61]؛ ولهذا فقد استثني آدم من الوجود السُّفلي كونه تاب الله عليه؛ بسبب استغفاره ورُقي إيمانه: {إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا}[62].

وعليه:

فالإنسان الأوَّل (آدم) كونه قد خُلق في أحسن تقويم فتقويمه الخَلقي لم يتغيّر، بل الذي تغيّر هو عدم أخذه بما يبقي الأخلاق ارتقاء؛ وذلك حينما أخذ بما يغوي، وهو المنهي عنه: (ألَّا يأكل من تلك الشّجرة)، فحاد آدم عن الخُلق الذي هو بيده تخييرًا، ولكن لم يحدّ عن خَلقه المقوّم تسييرًا؛ إذ لا إمكانيَّة له في ذلك (إنَّه صُنع الله).

ولذا فالارتقاء عقلًا لا يكون إلَّا كيفًا؛ كونه يتعلّق بالدّراية لا بالماديَّات، وهكذا حال النُّقلة التي لا تكون عقلًا إلَّا عن معرفةٍ وعلمٍ، وهي تختلف عن النَّقلة التي لا تكون إلَّا مادَّة.

---

[60] التين: 5.

[61] البقرة: 37.

[62] التين: 6.

إذن: فالارتقاء عقلًا لا يكون إلَّا وعيًا، وبه يتم التمييز بين ما يجب وما لا يجب، وبه دراية يتم الإقدام على ما ينبغي، والانتهاء عمَّا لا ينبغي؛ ومن هنا تتحقق الرّفعة بكل ما يؤدّي إلى النُّقلة إلى الأفضل والأنفع والأجود، أي: إنَّها تتحقّق بالتخلّي عن كل ما يؤدّي إلى السُّفليَّة والدّونيَّة.

ومع أنَّ خَلق الإنسان جاء على الرّفعة خَلقًا، فإنَّه من ناحية الأخلاق يقع فيما يؤدّي به إلى الدُّونيّة والسُّفليَّة؛ ولذا فلا ارتقاء إلَّا بفضيلة حميدة أو قيمة خيِّرة، ولا دونيّة إلَّا بالتخلّي عن الفضائل والقيم، التي لا تكون إلَّا في مرضاة الله تعالى.

ومع أنَّ أمر الارتقاء الآدمي جاء خَلقًا مميّزًا عن غيره من المخلوقات، وبقي متميّزًا وسيظل، فإنَّه أخلاقًا انحدر سُفليَّة؛ ذلك لأنَّ أمر الخَلق بيد الخَالق جلَّ جلاله، أمَّا أمر الأخلاق فبيد المخلوق الذي خُلق على التسيير خلقًا، وتُرك له التخيير فيما يشاء إرادة، سواء أكان ما يشاؤه دراية عن فضيلة وقيمة، أم ما يشاؤه بلا فضيلة ولا قيمة حميدة.

ولأنَّ الخَلق بيد الخالق فلا تخيير، ولأنَّه لا تخيير فسيظل من خُلق مكبّ الوجه مكبًّا، وسيظل الزّاحف زاحفًا، وسيظل من يمشي سويًّا على قوامه في أحسن تقويم، ومن ثمّ فسيظل القرد قردًا، والإنسان إنسانًا، والسّمك سمكًا.

ونظرًا لأهميَّة الإنسان في الوجود الخَلقي جاء خَلقه من عجلٍ: {خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ}[63] والعجل هو الشيء الذي نجهله صفة، وندركه شيئًا، فقوله: (من عجلٍ) أي: من شيء مميّز، ولم يقل: (على عجلٍ) أي: لم يقل (على تسرّعٍ)؛ فالخالق تعالى يخلق بالأمر لا بالجهد، ولهذا فخلقه لا تسرّع فيه، ولأنَّه لا تسرّع، قال: {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ}[64]. مع العلم أنَّ العَجل في كلام أهل حمير يعني: الطّين، وهذا المعنى ينسجم مع قوله تعالى: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ طِينٍ}[65]، والسّلالة هي: النّوعيّة الرّاقية من طين الجنّة حيثما كانت الأرض مرتقة مع السّماوات في عُلاها؛ لأنَّ خَلق الإنسان لم يكن على الأرض الدُّنيا، بل كان خَلقه على الأرض قبل أن تُفتق عن السماوات، ويُهبط بها دُنيا؛ ولهذا فالسّلالة تدلّ على أصل الخلق الآدمي من تراب الأرض المرتقة في السّماوات؛ حيث رُقي طين الجنّة.

ومن هنا، فسلالة خَلق الإنسان خاصّة به، والسّلالة تعني الجودة الرّاقية ذات الخاصيّة المتميّزة (جنسًا ونوعًا)؛ ولذا فلا عجل، ولا عبثيَّة في خَلق الإنسان الذي خُلق من طين الجنّة، والذي جودته تصلصل ارتقاء: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ}[66].

---

[63] الأنبياء: 37.

[64] التين: 4.

[65] المؤمنون: 12.

[66] الحجر: 26.

ولأنَّ الإنسان الأوَّل (آدم) قد خُلق في أحسن تقويم فهو من حمإ مسنون (من مادّة ذات جودة عالية)؛ إذ لا شائبة، ومن ثمّ فلا طين يماثلها؛ فالطّين الذي خُلق منه الإنسان من صلصال (أرقى أنواع الطّين).

ومن هنا خُلق الإنسان مُفضّلًا على جميع المخلوقات بما فيها الملائكة والجنّ: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ}[67].

ولأنَّ الإنسان هو المفضّل خَلقًا، وله ملكات العقل الدَّارية، فعلّمه الله نبأ ما لم يعلمه الملائكة: {وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ}[68].

ولأنَّ خلق آدم كان أكثر ارتقاء من غيره، سجد الملائكة له؛ طاعة لأمر الله: {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا}[69]، أي: بأسباب

---

[67] البقرة: 30.

[68] البقرة: 31 . 33.

[69] البقرة: 34.

الخَلق ارتقاء، وكذلك النّبأ العظيم الذي تلقاه آدم من ربّه، سجد الملائكة له؛ طاعة للنبأ الذي أنبأه الله به.

ولأنَّ الجنس الآدمي هو المفضّل ارتقاءً، كان آدم نبيًّا للملائكة والجنّ والإنس جميعًا: {قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ} فلمّا أنبأهم سجد الملائكة إِلَّا إِبْلِيسَ {أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ}. وإلّا هل هناك من يشكّ في أنَّ الذي سجد الملائكة له لم يكن على الارتقاء مفضَّلًا؟

أمَّا الخَلق الثَّاني: فهو الخلق المؤسّس على النّطفة (الماء الدّافق): {خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ}[70]، وهذا الخلق هو الخَلق التزاوجي، الذي يختلف عن ذلك الخلق المصلصل، ممّا جعل السّلالة الثَّانية تختلف عن السّلالة الأولى؛ فالسّلالة الأولى من طينٍ لازب، والسّلالة الثَّانية من ماءٍ دافق مَهين: {ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ مَاءٍ مَّهِينٍ}[71].

ولأنَّ الإنسان خُلق على الارتقاء فينبغي أن يكون عليه قمّة وكأنَّه كبد الكون: {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ}[72]، أي: خُلق الإنسان على المحبّة تميُّزًا فينبغي أن يكون عليها كبدًا تتألم مع من يتألم، وتأمل الخير مع من يأمله، وكذلك ينبغي أن تسعد مع من يسعد، وتسعى خيرًا استقامةً

---

[70] النحل: 4.

[71] السجدة: 8.

[72] البلد: 4.

واعتدالًا ولا مظالم، فتجمع ما تفرّق من أجل إعادة قيمة الإنسان وحفظ كرامته، وما يؤدّي به إلى الرّفعة والارتقاء دراية.

وعليه: تعدّ الأخلاق نتاج الفضائل الحميدة، والقيم الخيّرة، التي تستمدّ من الأديان والأعراف ارتقاء، فبها يرتقي الإنسان قولًا وفعلًا وعملًا ومعرفةً وسلوكًا؛ من أجل علاقات اجتماعيَّة وإنسانيَّة مؤسّسة على نيل التقدير والاعتبار.

وبما أنَّ الإنسان أساس خَلقه الارتقاء (في أحسن تقويم) فإنَّ غايته الارتقاء خُلُقًا إلى ما يجب، ومع أنَّ الأخلاق بيد النَّاس، فإنَّ بعضهم يخسرها بلا ثمن؛ ولذلك فالإنسان الأوّل قد خُلق من تراب الجنّة، وظل على خَلقه سلالة بشريَّة تمتدّ بين طينٍ لازب وماء دافق، ولا انحدار عن الخَلق المقوّم ولا تطوّر من بعده، فالإنسان هو الإنسان، ولكن الانحدار والتطوّر في دائرة الممكن هو بين متوقَّع وغير متوقَّع، فآدم وزوجه خُلقا في الجنّة من تراب الجنّة، ومع ذلك تعرّضا لإغواءٍ جعلهما على حالة من الانحدار عن الفضائل؛ حيث عدم التزامهما بالأمر النَّاهي عن الأكل من تلك الشَّجرة المنهي عنها: {فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ}[73].

[73] البقرة: 36.

ولذا فإنَّ البقاء في الجنّة بقاء فضائل خيّرة، فمن لا يكون عليها لا يكون فيها، فحتى آدم –عليه الصَّلاة والسَّلام–الذي خُلق في الجنّة خَلقًا أُهبط به على الأرض الهابطة إلى الحياة الدّنيا؛ وذلك بأسباب معصيته وميله لوسوسة من أغواه شهوة.

ولأنَّ الأخلاق يتمّ تشرّبها فضائل خيّرة فبعد أن تَلقّى آدم كلمات من ربّه ترشد إلى التي هي أقوم تاب الله عليه درايةً: {فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ}[74]، ومع ذلك صدر الحكم عليه والأرض ومن عليها من المخالفين أن يهبطوا من علوٍّ وارتقاء إلى سُفليَّة ودونيَّة: {قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا}[75].

ولأنَّ الهبوط كان نتاج الانفتاق العظيم فهو خروج من الجنّة؛ حيث ظلّت الجنّة في العلو رُقيًّا، وظلّ آدم ومن معه من المخالفين والعصاة (الإنس والجن) يحيون الحياة الدّنيا على الأرض الدّنيا، وفي المقابل بقي الملائكة الطّائعون في علو الجنّة ارتقاءً، ولا يتنزّلون إلى الأرض الدّنيا إلّا تنزيلًا؛ لأداء مهمّة تربط أمرًا بين السّماء والأرض، ونحن نجهله فلا ندريه: {لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ}[76].

---

[74] البقرة: 37.

[75] البقرة: 38.

[76] القدر: 3 . 5.

ولأنَّها الأرض الدّنيا وحياة المخالفين والمختلفين عليها مملوءة وسوسة وإغواء، إذن: فلا إمكانيَّة لأن تكون فيها الحياة آمنة مستقرّة لو لم تتنزّل الرّسالات والأنباء الواعظة، والنّاهية، والآمرة، والمحذّرة، والمنذرة، والمبشّرة بما هو أمل يشبع حاجة ويرضي رغبة؛ وذلك من أجل علاقات إنسانيَّة تنظّم أساليب الحياة ارتقاءً، وتُلفت المختلفين إلى ما يؤدّي بهم إلى الاتعاظ، ويمكّنهم من إحداث النُّقلة وبلوغ القمّة دراية.

فَأُنزلت الرّسالات درايةً تأمر وتنهى: {وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ}[77]، بمعني: يجب أن يكون الإنسان على الأخلاق الكريمة أينما كان، سواء أكان آدم وزوجه في الجنَّة ارتقاء، أم أصبحا وبنوهم على الأرض انحدارًا، غير أنَّ الحياة العليا بعد تلك الإغواءات قد جُرّدت من النقائص والحاجات التي أثّرت انحدارًا على الإنسان الأوّل (آدم) ومَن شاركه في المعصية أو حرّضه عليها، وأصبحت الحياة هناك ارتقاءً كاملًا.

أمَّا بعد الهبوط فَالفتن لم تنته، بل تكاثرت مع التزاوج والتكاثر، فالصّدامات والخصومات بين أبالسة وشياطين الإنس والجنّ استمرّت بلا انقطاع، ومع ذلك فإنَّ بقاءها في الحياة الدّنيا هو بغاية الاتعاظ، وأخذ العبر من ذلك الإغواء، الذي كان سببًا في هبوط المخالفين من الحياة الرّاقية إلى الحياة الهابطة.

[77] البقرة: 190.

ولأنَّ مخالفة آدم وزوجه لِمَا نهى الخالق عنه: الأكل من تلك الشّجرة قد أخرجهما من الجنّة؛ فظلّ هذا الدّرس شاهدًا على ما يمنع بني آدم من أن يدخلوا الجنّة، أي: بما أنَّ تلك المخالفة قد أخرجت آدم وزوجه من الجنّة، إذن: فكيف لبني آدم دخولها؟

أقول:

قال تعالى: {مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ}[78].

ولأنَّ أمر الهبوط كان أمرًا حاسمًا لمخالفة جرت في الجنّة إذن: ألا يعدّ أمر الهابطين أمرًا حاسمًا في عدم الدّخول إليها؟ وهل من مُخرجٍ من هذه الأزمة خاصة أنَّ معظم الخَلق لهم من المخالفات ما لهم على الانحدار والدونيَّة؟

أقول:

قال تعالى: {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا}[79].

---

[78] الأنعام: 160.

[79] الزمر: 53.

من هنا وجب إعمال العقل دراية حتى التبيّن وعيًا دون إكراه، فمن شاء فليؤمن، ومن شاء فليكفر؛ ولذا وجب قول الحقّ وترك النَّاس أحرارًا يختارون ما يشاؤون إرادة، ولكن إن حدث الانحراف فيجب الإصلاح الذي يستوجب البدء مع المنحرفين من حيث هم: (جهلًا أو تعلّمًا)؛ وذلك من أجل بلوغ الإصلاح، أو بلوغ الحلّ ارتقاء وعن دراية.

ولأنَّ الأخلاق ارتقاءً هي أساس المعاملة الحسنة فالأخذ بها عقلًا ودراية لا شكّ أنَّه يجعل الإنسان على المحبَّة، بدلًا من أن يكون على الإكراه الذي لا يترك إلّا ألما: {أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاس حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ}[80]، أي: فلا داعي أن يضيق صدرك يا نبي الله وأنت تعلم أنَّ مشيئة الخالق هي الفاعلة: {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا}[81]؛ لذلك كان محمَّد –عليه الصَّلاة والسَّلام– داعٍ إلى سبيل الحقّ بالحكمة والموعظة الحسنة، ولا إكراه، وهذه عين الأخلاق درايةً وارتقاءً، فالأخلاق تعد قيمة ارتقاء في ذاتها، وهي عندما تتجسّد في السّلوك يصبح سلوكها قمّة، ومن هنا فمن أراد أن يكون قمّة فعليه بعقله دراية.

ولأنَّ الارتقاء خَلقًا لا يكون إلَّا بيد الخالق فقد خَلق الخَالق آدم في أحسن تقويم من غير أب ولا أم (من تراب الجنَّة الصلصال الذي أحياه الله به نباتًا)؛ إذ لا إنس من قبله، ولأنَّه كذلك جعله الله على

[80] يونس: 99.

[81] يونس: 99.

الارتقاء نبيًّا؛ فسجد له الملائكة طائعين، إلّا إبليس، ومع أنَّ آدم قد خُلق في الجنّة والأرض مرتقة في السّماوات، فإنَّه بمخالفة أمر الخالق أُهبط به والأرض، وكذلك معه من كان سببًا في إغوائه ومعصيته، وأيضًا من قَبِلَ الإغواء معه معصية (زوجه)، وهنا تكمن العلّة التي دعت آدم ندمًا واستغفارًا وتوبةً، ولكنَّ قرارَ الهبوطِ نافذٌ: {قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ}[82].

ومع أنَّ آدم تاب لربَّه دراية، فإنَّ توبته لم تَحُلْ بينه وبين الهبوط على ظهر الأرض إلى الحياة الدُّنيا بعد أن كان على أرض النّعيم قمّة وارتقاء، فآدم عصى ربّه، ثمّ تاب؛ فتاب الله عليه، ثمّ اجتباه نبيًّا؛ لِيُنبئ من بُعث إليهم نبيًّا: {ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى}[83]، وهنا يكمن أمل آدم في العودة إلى الجنَّة ارتقاءً تلك الجنَّة التي فقدها ولم يعد يراها نعيمًا على الأرض المغبرّة التي أُهبط بها أرضًا، ولكن كيف يعود آدم إلى ذلك النّعيم الوافر؟

لا سبيل له عقلًا ودراية إلَّا الاستغفار الذي قطعه على نفسه عهدًا أمام ربَّه؛ فاجتباه ربُّه نبيًّا، وعلّمه ما لم يكن يعلم، ومن ثمَّ أدرك آدم درايةً أنَّ فرصة العودة إلى الجنّة بعد توبته لا شكّ فيها أبدًا.

---

[82] الأعراف: 24.

[83] طه: 122.

أمَّا مِن بعد آدم فأصبح العمل هو الممكِّن من إحداث النُّقلة وتحقيق الارتقاء دراية ورفعة؛ فتلك الجنّة التي خُلق فيها آدم لم يرها ابناه، فهما ولدا في الحياة الدّنيا (السُّفليَّة)، ولكن إنباء أبيهما أصبح بينهما حُجَّة وموعظة وعبرة، فبدأ العمل دراية وارتقاءً من أحدهما، وهو يأمل بلوغ ما أنبأه به أبيه الذي شهد ذلك النّعيم فأخذ بالنبأ وأمل الارتقاء إلى النّعيم نصب عينيه، وفي المقابل أخاه أخذته الشّهوة انحدارًا وسُفليَّة؛ فغاب عقله؛ فقتل أخاه في الوقت الذي يبسط إليه أخوه يده محبّة: {لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ}[84].

إذن: فالارتقاء عقلًا ودرايةً مؤسّس على الفضائل الحميدة والقيم الخيّرة؛ وذلك ارتفاعًا عن كلِّ ما من شأنه أن يؤدّي إلى الانحدار والسُّفليَّة، حتى بلوغ ما يُمكِّن من إحداث النُّقلة الممكِّنة من بلوغ الجنَّة عيشًا رغدًا، ومن هنا وجب عمل العقل عن دراية بالعمل المحقّق للعيش النّعيم، الذي فيه الوفرة:

. تغذي الرّوح نشوة.

. تطمئن النّفس سكينة.

[84] المائدة: 28 . 30.

. تخاطب العقل دراية.

. ترضي القلب يقينًا.

. تشبع البدن حاجة.

. تزيد الذّوق رفعةً وارتقاءً.

وعليه: فإنَّ الحياة الدُّنيا دراية عقليَّة إذا ما قورنت بتلك الحياة العليا فهي حياة الحاجات المنقوصة، وحياة الفتن والعداوات التي بدأت أوَّل ما بدأت بين الأخوين (ابني آدم)، ثمّ اتّسعت وتكاثرت مع التكاثر؛ فأصبح الصّدام والاقتتال انحدارًا من بعض النَّاس، وفي المقابل يرتقي بعضهم رفعة؛ فآدم الذي خسر ذلك الموقع الرّفيع، أصبح يأمل العودة إليه دراية؛ ولذلك فقد سعى استغفارًا وتوبة أهَّلته لأن يكون نبيًّا يُنبئ بما عُلّم به من قِبل خالقه، ومن ثمّ فلا مكان له بعد النبأ العظيم إلَّا الجنَّة، التي لا تبلغ ارتقاء إلَّا بالعمل الصَّالح عقلًا ودرايةً.

ولذلك أصبح العمل ارتقاءً أمل المصلحين السّاعين إلى الكسب الحلال بلا حدود، من أجل العيش الرّغد؛ ومن ثمَّ فالسّاعون ارتقاء مهما بلغوا من المراتب والقمم فهم يأملون مراتب عظيمة من بعدها قمّة أعظم؛ ولهذا وجب اتقان العمل إخلاصًا ودرايةً، حتى الارتقاء بالأرض الدّنيا ورتقها في السّماء جنّة.

ومن هنا وجب العمل الممكِّن دراية من بلوغ الأحسن والأرقى، شريطة ألا يكون التحسّن على حساب إشباع حاجات الغير، بل ينبغي أن يكون العمل ترسًا من تروس عجلة الحياة العامّة؛ لأنَّ الارتقاء الممكّن من العمل المرضي لا يُمكن أن يتحقّق والغير يتألم؛ ومن هنا فالعمل وفقًا لأهداف الحياة ينبغي أن يكون من ورائه غرض خاصّ وهو: إحداث النُّقلة عن درايةٍ، وغرض عام يُحفِّز الآخرين ويدفعهم للرفعة، وإلّا فألم الغير لن يفسح الطريق أمام من يسعى إلى الارتقاء غاية وهو لا يدري.

وعليه: فبنو آدم في دائرة الممكن هم بين متوقَّع الارتقاء عقلًا ودراية، ومتوقَّع الدُّونيَّة غفلة وشهوة، ومن جهة أخرى هم يتبدَّلون؛ إذ لا ثوابت؛ فمنهم من يبقى على الارتقاء، ومنهم من يتخلّى عنه، ومنهم من نراه في دونيَّة، ولكن من بعدها يبلغ القمم ارتقاء؛ ولذلك ينبغي العمل مع بني آدم من حيث هم، من أجل الارتقاء بهم إلى ما ينبغي أن يكونوا عليه دراية عقليَّةً واعيةً.

إذن: ينبغي على بني آدم عند رسم السياسات أن يجعلوا وراء كلّ هدف غرضًا، من ورائه أغراض تحقّق لهم المكانة والرّفعة، أي: تحقّق لهم المكانة الشّخصيَّة قدوة، وتحقّق لهم الكرامة الآدميَّة فضيلةً، وتحقّق لهم العيش السعيد قيمةً، ولكن إن لم يعملوا ويفعلوا فلا شيء لهم إلّا البقاء على الرّصيف بين حاجة وشُبهةً، وهنا يكمن الانحدار عِلَّة.

ولذا: فعلى العقل الآدمي درايةً أنْ يعي بإمكانيَّة بلوغ السّماء ارتقاء كلّما عمل وفقًا لأهداف تنجز، وأغراض تتحقّق، وغايات يتمّ بلوغها، ومأمولات يتم نيلها، ولكن إن أحسّ العقل وهو منفردٌ بشيءٍ من التّعب فعليه بوضع اليدين مع الأيدي صعودًا وارتقاءً.

فالارتقاء عقلًا ودراية مثل المعمار ينبغي أن يُبنى لبنة فوق لبنة (قيمة فوق قيمة، وفكرة من بعد فكرة، وهدف فوق هدف، وغرض فوق غرض، وغاية من فوقها غاية، وأمل من بعده مأمول أعظم)، ولكن في المقابل هناك من يهدم المعمار رأسًا على عقب، وهناك من يهدّه لبنة بعد لبنة، فالصّراع بين بني آدم لن ينتهي بين البناة رُقيًّا، والهادمين له انحدارًا؛ ولأنَّ الخالق خلقنا على الاختلاف فلا بدَّ أن نظل عليه مختلفين: {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاس أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ}[85]؛ ولهذا فالصّراع والصّدام بين أهل العقول والدِّراية وأهل الشهوة والتمدُّد على حساب الغير سيظل ساريًا، صراعًا بين حقٍّ وباطلٍ.

وإنَّ الاختلاف الذي خُلقنا عليه وسنظل عليه مختلفين قيمة خيّرة، هو: اختلاف التنوّع المشبع للحاجات المتطوّرة عن رغبة وإرادة، ولكن هذا الإشباع لا ينبغي أن يكون على حساب ما يشبع حاجات الآخرين؛ ولذلك يجب أن تحدّد الأهداف والأغراض والغايات بعيدًا عن كلّ ما

[85] هود: 118، 119.

من شأنه أن يؤدّي إلى الخلاف الذي فيه الاقتتال والفتنة، أي: ينبغي عقلًا ودرايةً أن تحدّد الأهداف وفقًا لما يجمع شمل المتفرّقين خِصامًا، ويحلّ تأزُّماتهم، ويشبع حاجاتهم المتطوّرة عدلًا وارتقاءً.

وعليه: فمن أجل الارتقاء قمّة ينبغي الابتعاد عمّا يؤدّي إلى الاقتتال والفتن، فالاقتتال والفتن ضياع فرصة، والزّمن لا يعطي الفرصة مرّتين، ومن ثمَّ يجب عدم إضاعة الفرص كلّما سنحت الظروف دراية وارتقاءً، ومن يضيّعها سيجد نفسه على غفلة من أمره، وحينها لن ينفعه النّدم، فالنّدم عندما تضيع الفرص قد يؤدّي بأصحابه إلى الهاوية، ولكن إن كانت الفرص لا زالت سانحة فالنّدم دراية يؤدّي إلى تصحيح المواقف الخاطئة بمواقف صائبة، أي: متى ما غلبت الشهوة عقل الإنسان انحدر غفلة، ومتى ما قوي عقله دراية ارتقاء تذكّر، فاتّعظ واعتبر، ومتى ما تدبّر عمل وأنتج، ومتى ما فكّر درايةً حدّد أهدافًا من ورائها أغراض، وغاية من ورائها مأمول يتم نيله.

ومن هنا: وجب التدبُّر دراية بما يبعد بني آدم عن الجلوس على رصيف المتسوّلين، فالتسوّل يؤخّر أصحابه عن الالتحاق بأهل العقول والدّراية، وفي المقابل لا ينبغي أن تجرّ العاطفة أصحابها إلى دعم مواقف المتسوّلين (الذين يتخذون التسوّل مصدرًا للعيش)، بل العقل المتدبّر لأمره يجب أن يدفع أصحابه إلى ما يُمكّن المتسوّلين من المشاركة في العمل المنتج، الذي يحفّزهم على تنمية قدراتهم وتوجيهها وفقًا لما يحقّق لهم

الارتقاء نهضة ورفعة، فيخلّصهم من التسوّل إرادةً وعملًا، وكذلك لا ينبغي أن يضع بنو آدم أنفسهم في مواقف الاستعطاف، ولا ينبغي لهم الأخذ بالعاطفة فيما يؤسّس إلى ترسيخ الفضائل والقيم وبناء الدّولة، فرجالات الدّولة كلّما أخذتهم العاطفة أخّرتهم عن إنجاز الأهداف السّامية، والأغراض الرّفيعة، والغايات العظيمة، والمأمولات قمّةً وارتقاءً.

فرجالات الدّولة عقلًا ودراية هم من لا تأخذهم العصبيّة؛ فالعصبيّة مقبرة الذين لا يعلمون، فرجالات الدّولة دراية وارتقاء كلّما حكموا عدلوا، وكلّما قالوا صدقوا، وكلّما عاهدوا أوفوا، وكلّما كَبِروا تواضعوا، أمَّا المدّعون لذلك فهم مع كلّ هبَّة ريح يميلون، وهنا تكمن علّتهم وسُفليَّة الدَّولة ودونيَّتها.

فقيام الدّولة ورفعتها ارتقاء لا يكون إلَّا عن عقلٍ ودرايةٍ؛ ولهذا ينبغي أن يتم استهداف رجالات بعينهم لإدارتها وفقًا لما هم عليه من مكانة ودراية وخبرة وتجربة ومهنة، ومع ذلك ينبغي أن يتم إخضاعهم للتقييم قبل أن يتمّ اختيارهم إلى مناصب إداراتها، وكذلك هم بعد الاختيار يقوَّمون كلّما حادوا عن الدّراية قيمًا وفضائلَ؛ وذلك:

أوَّلًا: بهدف إعادتهم إليها ارتقاءً.

وثانيًا: محاسبة من انحرف منهم عن قيم حَمْل المسئوليَّة، التي تم اختيارهم إليها إرادة.

ومن ثمّ فمن يرى نفسه رجل دولة فعليه باختبار نفسه وتقويمها قبل أن يُختبر ويقوّم من قِبل الغير.

فبنو آدم سواء أكانوا رجالات دولة، أم مواطنين كرام يدركون أنَّ السّبيل إلى النّجاح هو الارتقاء عن كلّ شيء يؤلم، أو يؤزّم العلاقات، أو يؤدّي إلى تفكّك اللحمة الاجتماعيَّة، أو الوطنيَّة، أو الإنسانيَّة، أو يمسّ معتقدًا دينيًّا، ومع ذلك فهناك من يجهل ويغفل، فيقع في فخّ مصيدة الغاوين والمزيّنين والمضللين، التي تزداد ضيقًا على رقاب من يقع في فخّها كلّما حاول أن يرى نفسه غير مختنقٍ.

ومع أنَّ للألم أوجاعًا، وللتأزّم أوجاعًا، فإنَّ أكثر الأوجاع بين بني آدم ما يتركه الغدر والخيانة من ألم؛ فآلام الغدر والخيانة لا تموت، حتّى وإن سامحك من أجرمت في حقّه؛ ولذلك وجبت الدِّراية وأخذ الحيطة والحذر؛ لكي لا يحدث الوقوع في فخّ المصيدة مرّتين.

أمَّا الحقد بين بني آدم فهو مثل حطب نار جهنّم يحترق قبل أن يحرق غيره، أي: إنَّ نار الحقد تحرق أوَّل ما تحرق حطبها (الحاقدين)؛ ولذلك فالحقد يُلهي الحاقد من بني آدم في نفسه، والحاقد في حقيقة أمره هو أوَّل من يكون في حاجة لمن يطفئ عنه النَّار التي بها نفسه تحترق، ومن ثمّ فمن يعتقد أنَّه إذا تمكّن من عضّ يد أحد وعضّها، فلا شكّ أنَّ عضَّ اليد يفكر الآخر في أنيابه إن لم تكن له مخالب.

ولذا فإنَّ الجهل والحقد والظّلم والعدوان والكيد والمكر عندما تشتعل نيرانها بين بني آدم فلا سبيل لهم إلّا التخلّف، والانحدار، والسُّفليَّة المؤلمة، وفي المقابل الشّعوب دراية ترتقي علمًا ومعرفةً وتسامحًا وخبرةً وتجربةً، فتغزوا الأرض سلامًا، والسّماء بحثًا وارتقاءً.

وعليه: فبنو آدم بلا عقل ولا دراية وبلا أمل لا يعدّون إلّا أمواتًا وهم على قيد الحياة، والذين يأملون الارتقاء ولا يعملون من أجله فسيبقون على أملهم وكأنَّهم بلا أمل، أمَّا البعض الذي يأمل ويعمل ويفعل فلا شكّ أنَّه سيُسهم في إحداث النُّقلة دراية وارتقاء، وفي المقابل هناك من يهدم وهو لا يعتقد أنَّ الهدم سيقع على رأسه وكأنّه بلا رأس.

وهكذا بلا عقول ولا دراية هناك من يصدّق كلّ ما يقال، ثمّ يُحمِّسهُ بين بني آدم مثلما يحمّس القمح في الحمّاس؛ ولذلك لا ينبغي أن يكون بنو آدم سماعيّين؛ فيصدّقون كلّ ما يقال، بل عليهم بالتذكّر اتعاظًا، وعليهم بالتدبّر تحليلًا وتفسيرًا وتخطيطًا وسلوكًا وعملًا، وعليهم بالتّفكّر دراية من أجل ما يجب؛ حتى يتمكّنوا من الارتقاء من خلال ما يمارسونه من حقوق عن رغبة، وما يؤدونه من واجبات عن إرادة، وما يحملونه من مسؤوليَّات وهم متحمّلون كلّ ما يترتّب عليها من أعباء جِسام.

وعليه:

فارتقاء بني آدم مؤسّس على ما أخبرهم وأنبأهم به أبوهم آدم، ومن بُعث من بعده من الأنبياء والرّسل صلوات الله وسلامه عليهم، ولهذا

فهم يأملون العيش في ذلك النّعيم المنبئ عنه؛ ولأجل ذلك فمن آمن منهم وعيًا ودراية يسعى ويعمل من أجله ارتقاء، ومن لم يؤمن ستظل فُرصه على قائمة الانتظار ما بقي حيّا.

فبنو آدم عقلًا ودرايةً من أجل تلك الجنّة التي وُصفت بما وُصفت به من عظمة؛ يسبِّحون بحمد الله من أجل بلوغها، ويصومون ويزكّون ويتصدّقون ويحجّون ويجاهدون بأموالهم وأنفسهم من أجل الفوز؛ ولذلك هم يصلِحون أحوالهم ويعفون ويصفحون من أجل نيل المأمول جنة.

وهنا أقول لبعض علماء الفيزياء وعلماء الفلك: ما قد تمّ اكتشافه عن الكون من قبلكم قد أخبرنا به القرآن الكريم الذي أُنزل قبل أن يفكّر أحد في غزو الفضاء، وقبل أن يتمّ اكتشاف أسرار من الكون؛ ولذا فَلِمَ لا تتوقّفون عند الكتاب لتتبيّنوا قوله؛ لعلكم ترشدون إلى المزيد من الاكتشاف العلمي عقلًا ودرايةً، وإلى ما يُمكّن من الارتقاء من أجل بني آدم (النَّاس جميعًا)، ومن هنا فإن كنتم أهلَ موضوعيَّة فلا يليق أن تتجاهلوا كتابًا يملأه العلم والبيّنة والدراية؛ فأنا لا أقول لكم: ادخلوا الإسلام، ولكن أقول: أنتم أهل علم، وها هو مصدر ثمين يملأه العلم آية ومن بعدها آيات.

وعليه: فالارتقاء بالنّسبة إلى بني آدم هو: أملٌ قابلٌ لأن يتحقّق ويتمّ بلوغه، ولكنّ مفهوم الارتقاء غاية لا يتّضح إلّا بمقارنة بين الحياة العُليا والدُّنيا؛ فالعُليا هي السّماء وما فيها من نعيم الجنّة وبقاء الحياة،

أمَّا الدُّنيا فهي الأرض وما عليها من مخلوقات وزوال الحياة؛ ولذا فبين هذا وذاك وجد الإنسان نفسه بين التّخيير تارة، والتّسيير تارة أخرى؛ فالتّخيير (تؤمن أو لا تؤمن، تعمل صالحًا أو تعمل طالحًا، تَصدُق أو تكذب أو تنافق أو تدّعي ما تشاء....)، أمَّا التّسيير فلا خيار لأحدٍ فيه (حياة أو موت، شروق أو غروب، برق، ومطر، ورعد، وصواعق، وزلازل، وبراكين، وتمدّد كوني متسارع، ومفاجآت عظيمة....).

ولهذا فالارتقاء قمّة يمكّن بني آدم عقلًا ودراية من العيش الرّغد في الحياة الدّنيا (الزائلة)، ويمكنّهم من العيش السّعيد في الحياة العليا (الباقية)، فبنو آدم عقلًا ودرايةً لا يقصرون أملهم على الحياة الزّائلة، التي يصرّون على أخذ نصيبهم منها، بل يربطون أملّ عيشهم فيها بأمل العيش في الحياة الدّائمة؛ ومن هنا فهم يعملون ويسعون إلى بلوغ المزيد المرضي لأنفسهم في مرضاة الله.

إذن: فالإنسان ينبغي أن يعيش والأمل لا يفارقه؛ فإن فارقه الأمل فلا معنى للحياة، فالله خلق أبانا آدم في النّعيم؛ ليعيش وبنوه حياة النّعيم، ولكن بأسباب الإغواء والمعصية أفسد حياته الباقية بالحياة الزَّائلة (الحياة المنقوصة)؛ حيث الفقر والألم والفاقة والمرض والتعرّض للمفاجآت والموت، ومع ذلك وجب العمل الممكّن من بلوغ الحلّ الممكن من التسبيح بحمد الله جلَّ جلاله.

ولسائل أن يسأل:

أيّ حلّ تعني؟

أقول: حلّ أزمة الحياة الدّنيا، التي تتطلّب العمل عقلًا ودرايةً بهدف النّهوض، وغرض الارتقاء، وغاية بلوغ القمّة (الحياة الباقية)، ثمَّ نيل المأمول جنّة؛ ولهذا فلا ينبغي أن يرضى بنو آدم بالفقر؛ فالفقر مرض ينبغي القضاء عليه بالعمل المنتج؛ ولذا فلو عمل بنو آدم جميعهم لما وجد الفقر مكانًا له على الأرض، ولأنّهم لا يعملون جميعًا فسيظلون فقراء مهما استغنى منهم من استغنى.

العقلُ بلا دراية:

مع أنَّ مفهوم العقل يعني: ما يُمكّن من الاستقامة والرّجاحة (رأيًا وعلمًا ومعرفةً ودرايةً) فإنَّ بعضًا من النَّاس قد مالت عقولهم وحادت عن الدّراية؛ فبنو آدم على الرَّغم من خَلقهم في أحسن تقويم، وعلى الرّغم من اصطفاء واجتباء الأنبياء والرُّسُل منهم، وبعثهم إليهم، فإنَّهم لم يُخلقوا على الكمال، وهنا تكمن العلّة، التي تجيز ارتكاب المخالفات والمعاصي وارتكاب الخطايا التي منها ما يُغتفر، ومنها ما لا يُغتفر؛ ولذا فهم يقعون بين اختياراتهم المسئولة (عن دراية) وغير المسئولة (بلا دراية)؛ ومن هنا فإن كانت اختياراتهم مسئولة حفّزت ودفعت تجاه كلّ ما يحققّ لهم الارتقاء رحمة، وإن كانت اختياراتهم غير مسئولة حفّزت ودفعت تجاه ما يؤدّي بهم إلى الانحدار والدُّونيَّة، ومن هنا يلد الخلاف خلافًا، وتشتدّ

الخصومات والصّدامات بين من يرى المسئوليَّة ارتقاء، ومن لا يرها إلّا انحدارًا.

ولذلك عندما تغيب المسئوليَّة دراية، يحضر الفساد والسّلب والنّهب والغدر والاقتتال المؤدّي إلى الدونيَّة، ولأنَّ بني آدم لم يُخلقوا على الكمال؛ فكان الضّعف فيهم نتاج رغبة وشهوة؛ حيث اختياراتهم بأيديهم: {وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا}[86]، أي: إنَّ الضّعف والوهن هما مكمن العلّة الآدميَّة؛ فمن يقوى من بني آدم ينهض ويرتقي دراية، ومن يضعف يستكين ويعوجّ انحرافًا بلا دراية؛ ولهذا بعث الله الأنبياء والرُّسُل الكرام يرشدون إلى ما يؤدّي إلى القوّة والارتقاء رحمة وعن دراية؛ فكان نوحٌ آية وبين يديه آيات النّهوض ببني آدم إلى ما يجب أن يكونوا عليه قمّة، ولكن معظم بني قومه كان الضّعف فيهم آية، فكذّبوه وكفروا به، وبما جاءهم به من حقٍّ هداية وعن دراية.

فتلك الفترة التي بُعث إليها آدم نبيًّا قد انتهت، والخلاف على أشدّه بين بنيه الأوائل؛ فبعث الله نوحًا لهدايتهم، ولكن شدّة الخلاف كانت عائقًا أمام هداية كثيرين منهم، فكان الطّوفان حلًّا فاصلًا بين من اتبع الحقّ هداية ودراية، ومن ضلّ عنه ضعفًا وانحرافًا وشهوة: {قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا

[86] النساء: 28.

آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ}[87]. فالقليل هم الأقوياء الذين ارتقوا إلى ما يُمكِّن من النَّجاة، أمّا أولئك الضّعفاء فغرقوا ضعفًا ووهنًا؛ ومن هنا يتضح معنى العقل الذي من امتلكه أحسن التصرف، وَمَنْ فرَّط فيه هلك.

وظلّت الحياة بعد الطّوفان العظيم مَحبّة ومودّة بين بني آدم الذين نجوا هداية، ولكن لأنَّ الذين أهبط بهم ظلوا على الأرض الدّنيا على ما هم عليه من خلاف؛ فالخلاف بين بني آدم لا مهمة له إلّا إيقاد نار الفتنة، وهنا تكمن علّة الضّعف والوهن الآدمي؛ حيث بقاء الشّهوة والرّغبة الجامحة في نفوس من خلف بعض النّاجين؛ ممّا ولّد فيهم ما ولّد من خلافات وانحرافات وشدائد وتأزُّمات، وكأنّ الطّوفان لم يحدُث آية، فضلّ من ضلّ إلى أن بعث الله إبراهيم نبيًّا ورسولًا، ثمّ بعث من بعده من بنيه أنبياء عظامًا؛ فكان خاتمهم محمَّد -عليه الصَّلاة والسَّلام- نبيًّا ورسولًا بالرّسالة الخاتمة، وللنّاس كافّة، ولا إكراه في الدّين؛ حيث تبيّن الرّشد من الغي.

أمَّا بعد انتهاء فترات بعث الرُّسُل صلوات الله وسلامه عليهم، فأصبح الأمر بين أيدي بني آدم وفقًا لرؤاهم ومدى ارتقائهم وأخذهم بالفضائل الخيّرة عقلًا ودراية؛ ولذا في زمن الرُّسُل لا قيمة للأنظمة الحاكمة، بل الأمر كان بين السّماء والأرض إنباء ورسالات (أنبياء ورُسُل)، أمّا ما بعد الرّسالات والرّسُل فأصبح الأمر بين النَّاس شورى،

[87] هود: 40.

وفقًا للإرادة والرّغبة والمقدرة والحاجة والحُجَّة العقليّة وعيًا ودراية: {وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ}[88]، والشورى هنا لم تكن خاصّة بالمسلمين، بل هي الحلُّ؛ فمن شاء الحلّ فعليه به ديمقراطية وشفافيَّة بلا مكاره.

ولذا كان الاختلاف والخلاف في معظمه بين مَنْ يحكم مَنْ، ومن يأخذ بما أنزلت به الرّسالات الخالدة عقلًا ودراية، ومن يتخلّى عنه دونيَّةً وانحدارًا، وبين من يرى الحريَّة؛ حيث لا إكراه، ومن يرها تمدّدًا خارج الحدود، ومن يرها لا تكون إلّا وفقًا لما يفيد الأنا، أو طائفته، أو قبيلته، أو حزبه، أو مدينته، وفي المقابل هناك من يرى الحرّية عدالة يستظل الجميع تحت مظلتها؛ حقوقًا تمارس، وواجبات تؤدّى، ومسؤوليّات تُحمْل، وبين هذا وذاك لا يزال بنو آدم مختلفين وسيظلون إلّا من رحم ربّك: {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاس أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ}[89].

ولأنَّ الاختلاف لن ينتهي بين بني آدم، إذن: فسيظل بينهم حيثما بقوا على أرض الاعوجاج دُنيا، ولا استغراب أن يخالف بعض النَّاس بعضًا، ولا استغراب أن يتصادم بعضهم مع بعضٍ، ولكن الاستغراب ألا تُصحّح المعلومات الخاطئة بمعلومات صائبة تُصلح المعوجّ وتدفعه تجاه

---

[88] الشورى: 38.

[89] هود: 118، 119.

الحلّ دون هيمنة ولا حرمان؛ أي: لا ينبغي أن يُلغى الاختلاف، بل ينبغي أن يلاحق الاختلاف حلًّا حيثما حلّ.

وعليه:

في زمن الرّسالات والأنبياء الكرام كان الحلّ يتنزّل على الأقوام والأمم والكافّة من السّماء، أمَّا في الزّمن الذي بعد رسول الكافة فلا نبي ولا رسالة بعد الرّسالة الخاتمة؛ فكلّ شيء قد أنزل، وبقي الأمر بين النَّاس شورى، سواء أكان أمر النَّاس سلمًا أم حربًا، أم سياسة داخليَّة، أم سياسة خارجيَّة، ومن ثمَّ فما يتّفق عليه مَن يتعلّق الأمر بهم يُقدّر ويحترم ويعتبر، ثمَّ يُقرّ ويؤخذ به عملًا وفعلًا وسلوكًا، وفي المقابل لا يؤخذ بما يخالفه؛ لكونه معوجًّا.

ولذلك فالاختلاف والخصام والجدال والصّدام في زمن الرُّسُل قد تأسّس على الفضائل الخيّرة معها أو ضدّها، وهي الفضائل التي لا تستمدّ إلّا ممّا أنزل من عند الله؛ إذ: {لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ}[90]، و{وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ}[91]، و{لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ}[92]. إنَّها الفضائل التي لا تكون إلَّا ارتقاءً انسانيًّا؛ ذلك لأنَّها فضائل طي الهوة التي تُختلق من الحين إلى الحين بين بني آدم علّة وعدم دراية.

---

[90] البقرة: 256.

[91] الشورى: 38.

[92] الكافرون: 6.

أمَّا بعد اختتام الرّسالات والرّسُل فأصبح للقيم الاجتماعيَّة تقدير ومكانة إلى جانب تلك الفضائل الإنسانيَّة، أي: أصبح للخصوصيَّة الاجتماعيَّة أهميَّة ومكانة، ولتنوّع اللغات أهميَّة ومكانة، ولما يختاره ويقرّه النَّاس أهميَّة وضرورة، ومن ثمّ أصبح للدّساتير والقوانين المنفّذة لها أهميَّة مقدّرة بين الأمم والشّعوب؛ ولذلك فالأخذ بالقيم الحميدة يؤكّد أهميّة تلك الفضائل الخيّرة في ترسيخ قيمة الإنسان وحفظ كرامته من خلال عدم إكراهه بأيّة علّة، ومن خلال مشاورته في كلّ أمر يتعلّق به وبمصيره، وفي المقابل من يغفل عن أهمية ذلك سيجد نفسه شريكًا في كلّ ما يؤدّي إلى الفتن والانقسامات والصّدمات المؤلمة التي لا تكون إلَّا على أيدي المعوجّين عمَّا يجب أن يكون بين النَّاس محبّة ومودّة[93].

ولأنَّ الوجود الخَلقي بيد الخَالق فلا يمكن أن يخلق الخَالق لخَلقهِ ما هو فتنة ويقرّها لهم وجوبًا؛ بل خلقهم في أحسن تقويم ليبقوا كذلك، أمَّا ارتكاب المعيبات فإنَّه بيد المخيّرين الذي لم ينتهوا عمَّا نهاهم الله عنه، وهنا تكمن العلة والفتنة، وهي التي لا تحدث إلَّا بأيدي النَّاس وفي غير مرضاة الله تعالى.

ولذا فالإنسان الذي أحيي من تراب الجنَّة خلقًا؛ هو المفضّل وسيظل مفضَّلًا إلَّا إذا حادت أفعاله عن حسن الخُلق، أي: إلَّا إذا

[93] عقيل حسين عقيل، العقل من اللاشيء إلى الشيء دراية، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2020م ص 5 – 47.

فسدت أخلاقه، وهنا يصبح هو مصدر العلّة؛ كونه لم يلتزم بحدود الله، ولم ينته عمَّا نهاه الله عنه.

ولكن: **من الذي خُلق من تراب الجنَّة؟**

آدم وزوجه؛ ولهذا فنحن بنو النطفة لا ينطبق علينا أمر الخَلق المباشر من تراب الجنة، ومن ثمَّ ليس لنا إلَّا العمل إن أردناها (مجمع الرَّحمة والديمومة الآمنة بقاءً).

وعليه: فإنَّ أصل الخلق البشري مِن خَلقِ الكون، أي: لو لم يكن الكون لتكون الأرض منه، ما خُلق الإنسان من ترابها: {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِّنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ}[94]؛ فالخلق من تراب على الرّغم من اختلاف المعتقدات والمعارف العلمية، فلا أحد يشكّ فيه، وبخاصّة بعد اكتشاف عناصر خلق الإنسان التي هي من مكوّنات الأرض ترابًا، والتي كان أكثرها نسبة الأكسجين 65%، ثمّ الكربون 18%، ثمّ الهيدروجين 10%، وتوزّعت بقية النّسب تكوينًا في جسم الإنسان[95]؛ ولذلك فلم يبق شيء يمكن أن يكون مكوّنًا لجسم الإنسان إلّا وهو عنصر في الأرض، أمَّا أمر الرّوح فلم تكن من تراب، ولم تكن من مكوّنات

---

[94] الروم: 20.

[95] http://alelmwalmarefa.blogspot.com.eg/2014/04/blog-post_21.html

الجسم الإنساني، بل هي المدخلة عليه إدخالًا: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا}[96].

ومع أنَّ أصل النّشوء البشري من تراب، فإنَّ الخلق البشري لم يكن ترابًا، بل كان شيئًا على المعرفة الممكّنة من: (التذكّر، والتدبّر، والتفكّر)، ومن هنا فالإنسان يتطوّر معرفة وليس جسدًا؛ فالجسد أُنبتَ من الأرض نباتًا: {وَاللَّهُ أَنْبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نباتًا}[97]، فهنا الآية تعود على البشر، ولأنَّكم يا بني آدم من ترابها؛ فأنتم نشأتم من الأرض وكأنَّكم نبات من نباتها، وقوله: {وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ} أي: أنشأكم من الأرض نشأة، ولأنَّ خلق الإنسان من الأرض، قال: {أَنْبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نباتًا} ولم يقل: (إنباتًا)؛ ذلك لأنَّ (النبات) من الأرض، أمَّا (الإنبات) فمن خارجها؛ ولأنَّكم يا بني آدم من الأرض؛ فكان نشوؤكم منها نباتًا.

ولذلك فهل يمكن لأحدٍ أن يقول: إنَّه لم يكن من تراب الأرض وعناصر تكوينه تشهد عليه ترابا؟! وإذا كان الأثر خير دليل لإثبات براءة أو إدانة صاحبه، إذن: فلا شكّ أنَّ عناصر خلق الإنسان من تراب خير شاهد على نشوئه منها.

وعليه: تَطَوَّرَ الوجودُ من لا شيء يُدْرَكُ إلى شيءٍ مُدرك فكان ما يشير إليه الفيزيائيّون بالذّرة أو النّواة الأولى، ثمّ الانفجار العظيم الذي به

---

[96] الإسراء: 85.

[97] نوح: 17.

أصبح الكون وجودًا، والحياة تملؤه شيئًا ولا شيء، فتكوّرت النّجوم والكواكب، وكانت الأرض المكان المناسب لحياة الأزواج التي خُلقت منها خلقا: {وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ}[98].

ولأنَّ الأرض مكان خلق الخلائق فكانت الأجناس والأنواع جمادًا ونباتًا وحيوانًا وبشرًا، وما لا نعلم، خَلقٌ من تراب (خلق الأصل الأوَّل)، ولكن لكلّ طينته التي تميّزه عن غيره، وفقًا لمشيئة الخالق: {وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ}[99].

ومع أنَّ خلق الإنسان الأوّل: (آدم) من ترابٍ، فإنَّه لم يكن ترابًا، بل بشرًا في أحسن تقويم، هيئة وصورة وعقلًا: {إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ أَنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّنْ طِينٍ}[100]، أي: إنَّ الإنس الذي خُلق من طين ليس بطينٍ، وهنا يكمن الإعجاز الخلقي، فلو كان الإنسان طينًا لكان جدارًا.

ومع أنَّنا نتحدّث عن الإنسان الأوّل: (آدم) لكنَّنا نشير به إلى الجنس البشري، الذي من البدء كان خلقه على الزّوجيَّة (آدم وزوجه)، مثله مثل بقيّة الخلائق كلّها خُلقت على الزّوجيّة الثنائيّة، ولا شيء خُلق على الفرديَّة: {وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ}؛ ولذلك فيصعب علينا الأخذ القاطع بما لم ينزّل قرآنًا، وهو: أنَّ حواء من ضلع آدم فكيف لنا

---

[98] الذاريات: 49.

[99] الحجر: 19.

[100] ص: 71.

بذكر حواء، واسم حواء لم ينزل في القرآن ولا مرّة واحدة؟ بل قال القرآن: (زوجك) ولم يقل: (زوجتك)، ومن هنا فالفرق كبير بين المفهومين فزوجك: يشير إلى دلالة التسوية الخلقيّة من تراب، أمَّا زوجتك: فأمرها يعود كما يعود أمر خلقك إلى نطفة: {وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ}[101]، ثمّ أكّد على أنَّها: (زوجك)، ولم ترد كلمة: (زوجتك)، ولا مرّة واحدة في القرآن أيضًا: {فَقُلْنَا يَا آدَمُ أَنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ}[102].

إذن: فخلق الإنسان تطوّر من تراب إلى بشرٍ، وكأنَّه لا علاقة بالمشاهدة بين الصّفات الطينيّة، وصفات الإنسان التي خُلق عليها بشرًا سويًّا، ولكن هذا التطوّر الخلقي نشأ الخلق عليه نشوءًا: {هُوَ أَنْشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ}[103].

ولأنَّه تعالى خَلق الأزواج كلّها: {وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا}[104]؛ وخَلق الإنسان من بينها في أحسن تقويم، إذن: فقد خَلقَهُ متميّزًا ومتطوّرًا عن بقيَّة الخلائق؛ ليكون على التطوّر إلى النّهاية.

---

[101] الأعراف: 19.

[102] طه: 117.

[103] هود: 61.

[104] النبأ: 8.

ولأنَّ الإنسان خُلق في أحسن تقويم: (أحسن صُنع، وأحسن قوام، وأحسن صورة) فكيف يقال عنه: إنَّه حيوان متطوّر؛ فالحيوان وإن تطوّر فلن يكون إلّا حيوانًا، وفي المقابل سيبقى الإنسان إنسانًا وإن انحدر.

ومع أنَّ داروين لم يقل: إنَّ أصل الإنسان قرد، فإنَّ كثيرين نسبوا ذلك إليه، فداروين يرى شبهًا بين القرد والإنسان وكأنَّهما ابني عمومة، ولكن وإن التبس الموضوع عليه أو على البعض فدائمًا المشبه غير المشبّه به، فأنت دائمًا غير أبيك، وأنا دائمًا غير ابني، وحتى التوأم لكلّ بصمته التي تميّزه عن الآخر؛ فما بالك بمن لم يكن من طينتنا ولا نحن كنّا من طينته!

فالقرد لو تطوّر وأصبح إنسانًا كما كتب البعض ما لم يكتبه داروين؛ لانعدمت القرود من على وجه الأرض، وإنْ قبل من يقبل بذلك فهل يقبل بتطور القرد عند حدّ ما وصفوه به، أم إنَّه ينتظر تطوّرا آخر مجهول الهويّة والصّفة؟ وكيف للإنسان الذي يعلم بطينة خلقه، وحُسن تقويمه، أن يقبل الانتماء إلى طينة هي أقل شأنًا منه؟! وهذا إذا أخذنا بمعيارية القيم الاجتماعية والإنسانيّة.

إنَّ الخلق في أحسن تقويم هو خلق تميّز تفوّقي على كلّ المخلوقات؛ جن وملائكة، وكائنات أخرى، وإلّا هل هناك من ينكر اصطفاء أبينا آدم نبيًّا للملائكة والجن والإنس؟ {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ

الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ أَنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ}[105]، أي: إنَّ الله –تعالى– قد فضّل آدم على الجميع: {وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا}[106]، والأسماء كلّها هي الأسرار التي لم يعلمها الملائكة من قبل؛ حيث أسبقية خلقهم على آدم: {قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ}[107]؛ فآدم كونه النّبي أنبأهم بما أنبأه الله به دراية، وهو: (ما يعلمونه من قبل وما لم يعلمونه). {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ}[108].

ولأنَّ آدم نبي سجد الملائكة له طاعة لأمر الله: {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا}، وإلّا هل هناك من يظن أنَّ الملائكة أفضل من آدم؟ فلو كان الملائكة هم المفضّلين عند الله على آدم لكان الرّكوع من طرف آدم، وليس الرّكوع له طاعة لله تعالى.

وعليه: كيف يَقبل عقل الإنسان الذي خلقه الله في أحسن تقويم، وفضّله على الملائكة بأنَّه قد تطوّر من كائن حيواني إلى بشرٍ مع علمه أنَّه قد خُلق في أحسن تقويم؟

---

[105] البقرة: 30.

[106] البقرة: 31.

[107] البقرة: 33.

[108] البقرة: 34.

فالعالم داروين مع أنَّه لم يجزم بقوله: إنَّ الإنسان والقرد يعودان لأصل واحد إثباتًا، فإنَّه يظن أنَّهما يعودان من خلال التشابه في بعض صفات الهياكل التي أخضعت للمقارنة البحثيَّة.

ونحن نقول: السّلالات خُلقت خلقًا مستقلًّا، ولكلٍّ خصوصيَّته؛ فلا الذّباب يصبح جرادًا، ولا القمح يصبح شعيرًا، ولا التفاح يصبح ليمونًا، ولا الحمير تصبح خيلًا، ولا الكلاب تصبح ذئابًا، بل لكلّ سلالته، ولكلّ سلالة جيناتها التي تميّزها عن الجينات والسّلالات الأخرى، ومع ذلك فإنْ تشابهت المخلوقات فالخالق واحد، ولكن التشابه لا يدلّ إلّا على تباعد الخصائص، ووجود الاختلاف؛ حيث لا تطابق؛ ولهذا فمهما تشابه المتشابهون فهناك شيء مختلف بينهم، وهو ما يميّزهم عن بعضهم.

وعليه:

هل يليق بنا أن نقول:

- كلّ من لديه معدة هو من أصل واحد؟
- كلّ ما له فقرات هو من جنس واحد؟
- كلّ من لديه جهاز تنفسي هو من نوع واحد؟
- كلّ من لديه عقل يعود إلى جدّ واحد؟

فمع أنَّ العقل يميّز خلق الإنسان، فإنَّ كلّ الكائنات لها عقول، ولها من الذّكاء ما يميّزها؛ فالطيّور لو لم تعقل ما بنت أعشاشها، والنّحل لو لم يعقل ما نظّم علاقاته تنظيمًا رفيعًا، والفئران لها من الذّكاء ما يتعب القطط، وتحايل الثّعالب يرهق الحرّاس، وذكاء الغربان تجاوز معرفة الإنسان: {فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي}[109].

وكذلك مع أنَّ الخالق خَلق الإنسان في أحسن تقويم، فإنَّه لم يقصر حُسن خَلقه على الإنسان وحده، بل كلّ شيء خَلقه على الحُسن؛ فما يره البعض على غير حُسنٍ يراه البعض على الحُسن تمامًا: {أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ}[110]، أي: أتقن الله الحُسن في كلّ شيء خلقه؛ كونًا ومخلوقات كونيَة، وفي مقدّمتها جاء خلق الإنسان في أحسن تقويم، ثمّ كان الحُسن والجمال والزّينة في بقيَّة الخلائق: {وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً}[111]؛ ولهذا فكلّ شيء خُلق على القانون الخلقي موزونًا، ولا شيء يُخلق عبثًا: {فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ}[112].

---

[109] المائدة: 31.

[110] السجدة: 7.

[111] النحل: 8.

[112] المؤمنون: 14.

ولأنَّ الإنسان خُلق في أحسن تقويم، إذن: لا يوجد مخلوق أفضل منه، ومن ثمّ فمن يُسلّم بالتطوّر الحيواني المزعوم ينبغي عليه أن ينتظر تطوّرًا آخر، ولكن ليعلم أنَّه لا أفضليّة بعد خلق الإنسان الذي خُلق على الزوجيّة كغيره من الخلائق: {جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا}[113].

ومع أنَّ لنظريَّة داروين باعًا في علم النَّبات والحيوان، وما قدّمته من مقولات تتعلّق بخلق الإنسان ونشوئه وتطوّره، فظل للتقدّم العلمي كلمته في تغيير كثير من المقولات الداروينيّة، وبخاصّة التي ترى: أنَّ الفناء والهلاك للكائنات الضّعيفة الهزيلة، والإبقاء على الكائنات القوية وفقًا لقانون: (البقاء للأصلح)؛ حيث يبقى الكائن القوي السّليم الذي يورث صفاته القويّة لذريّته، وتتجمّع الصّفات القويّة مع مرور الزّمن مكوّنة صفة جديدة في الكائن، وذلك هو (النّشوء) الذي يجعل الكائن يرتقي بتلك الصّفات الناشئة إلى كائن أعلى، وهكذا يستمر التطوّر ارتقاء[114]، ولا شكّ أنَّ الضّعف والوهن لا يولّد القوَّة الفاعلة، ولا يجعل بقاءً صالحًا، وأنَّ القوَّة المناعيّة المتوازنة تمكّن أصحابها من البقاء الأفضل، ولكن فوق هذا وذاك سيظل للتقدّم العلمي كلمته في تفادي الضّعف وتغييره إلى

---

[113] الشورى: 11.

[114] تشارلز داروين، أصل الأنواع (نشأة الأنواع الحية عن طريق الانتقاء الطبيعي)، ترجمة: مجدي محمود، 2004، ص 154 – 157.

قوَّة، وكما نعتقد سيكون الزّمن كفيلًا بذلك: {وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا}[115].

ومع أنَّ ما نظَّرَ له داروين مؤسّس على البحث والتقصي العلمي، فإنَّ تطوّر العلوم وصل إلى اكتشاف كثير من أسرار خريطة الجينات الوراثيَّة، وبإمكانه تحسينها واستبدال المشوّه منها بما هو أرقى؛ من أجل نشوء بشري وحيواني ونباتي خالٍ من العلل، وهكذا سيكون التطوّر من حسنٍ إلى أحسن، ومن أفضلٍ إلى ما هو أفضل منه، ومن ثمَّ في الوقت الذي فيه البيئة تُلوّث فإنَّ العلم فيه يتطوّر، حتى يمكّن من تطهيرها إن حَسُنت إداراته معرفةً ودراية.

ومع أنَّ سلسلة التكاثر الخلقي متَّصلة ولم تنقطع، فإنَّ معرفة الأثر المشترك الذي يعود إليه الجنس البشري ومن قالوا عنه: الشبيه (الشمبانزي) لم يعثر عليه بعد؛ لتكون الإجابة حلقة ربط بين ما تمّ اكتشافه من معرفة، وما لم يتمّ اكتشافه؛ ولذلك فالحلقة ستظل مفقودة، وبخاصّة أنَّ الطبيعة تتعرّض للزلازل والبراكين كما تعرّضت للطوفان (زمن نوح)، وهذه الحقائق من علل إخفاء الأثر الذي على أثرها يمكن أن يظل حلقة مفقودة، أو أنَّه يجيب عن افتراضات من لا يرى إلّا ما يراه مشاهدة.

أمَّا القول: إنَّ داروين قال: إنَّ أصل الإنسان قرد فهو بحقّ لم يقله، ولكن كثيرين ألبسوه قميصًا غير قميصه، فهو لم يتحدّث عن الصّلة بين

[115] الإسراء: 85.

الإنسان والقرد إلّا تشابهًا، فمحتوى قوله: "يوجد شبه بين الأثر العَظْمِي للإنسان والقرد وكأنَّهما يعودان إلى أصل واحد وأنهما أبناء عمومة" وهذا القول حفّز البحاث على بذل المزيد من الجهد؛ من أجل المزيد المعرفي، وبخاصّة أنَّ داروين لم يقتصر رأيه على العلاقة التشابهيَّة بين الإنسان والقرد، بل وسّع استنتاجاته بقولهِ: "إنَّ كلّ الفصائل لها جد مشترك (قديم)"؛ ومع ذلك فما قاله داروين لا يزيد عن كونه افتراضًا محفّزًا على مزيد من البحث العلمي والتقصّي الدّقيق.

ولكن ما قاله داروين قد فتح بابًا للتّحاور والنّقاش وتبادل الحُجج العلميَّة والمنطقيَّة، وتبادل ما يتوافر من مسلّمات ودلائل يمكن أن تصحّح معلومات خاطئة بمعلومات صائبة، ومن ثمّ فلا احتكار للمعرفة، وبخاصّة بعد اكتشاف خريطة هندسة الجينات الوراثيّة التي أضافت إلى معارف الإنسان ما لم يكن يعرفه من قبل، ومن ثمَّ يمكن من خلالها الوصول إلى مزيد من التفسير العلمي المؤدّي إلى معرفة الحلقة المفقودة، أو تسلسل حلقات الوجود الخلقي أجناسًا وأنواعًا وسلالاتٍ؛ حيث لا حلقة مفقودة.

ولأنَّ الخالق واحد، إذن: فلا استغراب، ولا تعجّب من وجود التشابه بين خلائق الخالق.

ومن ثمّ فحيثما يوجد التشابه يوجد الاختلاف، ولكلٍّ منهما أهمية؛ فأهمية الاختلاف حتى وإن كان أقل من 1%؛ أنَّه الدّليل على وجود الخصوصيَّة والتميّز والتنوّع.

أمَّا أهميَّة التشابه بين الكائنات والإنسان فستكون نتائج التجارب التي تُجْرَى عليها (على تلك الكائنات الشبيهة) ذات أهميَّة عظيمة على الإنسان؛ سواء من حيث اكتشاف الأمراض والوقاية منها، أم من حيث علاجها، فإجراء التجارب على الحيوانات المتشابهة جينيًّا مع الإنسان ذات فائدة على صحة الإنسان، وسلامة بيئته التي تحوطه وتحتضنه.

ومع أنَّ التحدّث في السّابق كان عن وجود تشابه كبير بين الإنسان والشمبانزي، فإنَّ الدّراسات العلميَّة الحديثة أثبتت أيضًا وجود علاقة كبيرة بين جينات الفأر والإنسان، وقد بلغت نسبة التشابه الجيني بينهما 99%، وهي بالتمام مثل النّسبة الجينيّة بين الإنسان والشمبانزي اللذين يشتركان في جينات متشابهة بنسبة 99% أيضًا[116]؛ ولهذا ستتعزّز ثقة الباحثين فيما يجرونه من تجارب مختبريَّة لدراسة الأمراض التي تلمّ بالبشر[117].

[116] أميمة خفاجي، قضايا وآراء، جامعة قناة السويس، 24 من أغسطس 2003م، العدد: 42629.

[117] جريدة الشرق الأوسط الخميس 30 من رمضان 1423 هـ 5 من ديسمبر 2002م العدد: 8773.

ومهما كان التشابه متقاربًا في أيّ صفة من صفات الخلائق بين السّلالات والأنواع والكائنات، فهو لا يعني تقاربًا في كلّ الصّفات والخصائص، فالشمبانزي والفأر والإنسان وإن كان التقارب بينهم في الجينات الوراثيَّة كبيرًا جدًّا، ولكن سيظل الفرق بينهم واسعًا في صفات أخرى؛ سواء أكانت صفة شكل، أم هيئة، أم معرفة، أم علاقة، أم ثقافة وحضارة، أم تذكر، أم تدبّر، أم تفكّر، أم دراية، أو حتى سكون وحركة؛ ولذا فلو كان للإنسان مئات الصّفات وتشابه مع غيره من الكائنات الأخرى في عدد منها؛ **فَعَلامَ يدلّ ذلك؟** بلا شكّ إنَّه لا يدلّ إلّا على وجود اختلافات.

ولهذا فمهما تقاربت الصّفات بين الخلائق فلا يمكن أن يتساوى البائع والمباع، ولا يمكن أن يتساوى الصيّاد والطريدة؛ فالفأر سيظل فأرًا بعيد الصّفات عن صفات الإنسان، كما تبعد عنه صفات القرد الخاصّة به، ولكن هذا لا يعني تقليل شأن التشابه الذي تمّ اكتشافه في الجينات الوراثيّة بين الإنسان والفأر والقرد، بل ما ثبت من تشابه ستكون نتائج تجاربه بلا شكّ ذات فائدة للإنسان.

ومع أنَّ البحاث يسعون إلى مزيد من البحث العلمي؛ من أجل معرفة الحلقة المفقودة، فإنَّ معظم المتشابهات المشتركة بين الإنسان وبقيَّة الحيوانات هي متماثلة بالتَّمام؛ فكلُّها تتوالد وتتكاثر تزاوجًا، وأجهزتها لا تختلف وظيفة، فالكليتان هما الكليتان وظيفةً، والمعدة هي المعدة، والجهاز

التنفسي هو الجهاز التنفسي، والرّضاعة هي الرّضاعة، وهكذا بقية الحواس هي الحواس، والحمل هو الحمل: {يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ}[118]، وغيرها كثير؛ ولذا فلا حلقة مفقودة بين المتشابهات، بل الحلقة المفقودة؛ إذ لا إمكانية للتطابق.

ومع أنَّ داروين قد بحث وفسّر وفتح بابًا أمام من يجتهد؛ حتى يتمّ اكتشاف مصادر حلقات السّلالات النوعيَّة، والجينات الوراثيَّة للأجناس والأنواع، فإنَّ هذا لا يعني أن يُضرب بقول الخالق عُرْضَ الحائط؛ فهو المنزّل للحقائق التي يتساءلون عنها قبل أن يخلق داروين الذي أصبح عنوانًا في ميادين علوم الحياة.

فالله قال: {وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ}[119]، فقوله: {وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ} لم يستثنِ شيئًا إلّا وقد خلقه على الزّوجية خلقًا مستقلًّا عن الأزواج الأخرى، ثمّ قال: {يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ}[120]، إنَّها عمليَّة خلقية مُحكمة لم تترك ثغرة لنفوذ نوع إلى نوع آخر إلّا وفقا لسلالته؛ ولذلك لا تشويه لخلق الله، مع أنَّ البشر بإمكانهم التدخل للتّشويه الشكلي والظاهري، أمَّا الجينات وإن تمّ التلاعب بها، فإنَّها ستظل خاصّة مثل البصمة.

---

[118] الزمر: 6.

[119] الذاريات: 49.

[120] الزمر: 6.

الوجود الكوني انفتاقًا:

مع أنَّ الانفتاق الكوني شيءٌ عظيمٌ، فإنَّه لا يمكن أن يكون أعظم من الوجود المستمد منه؛ وهكذا مهما عظم الشيء فلن يرتقي لعظمة من أوجده شيئًا، ثمَّ جعله شيئًا عظيمًا؛ ولهذا دائمًا المستمد من الشيء وإن عظم شأنه فلا يرتقي إلى عظمة شأن المستمد منه.

ومن هنا نقول: إنَّ الانفتاق العظيم نشوء طرأ على الوجود الكوني الملتحم سماوات وأرضين، والانفتاق لم يكن علّة خلق الكون، بل سبب تعدّده أكوانًا، فلو لم يكن الرّتق (الالتصاق) ما كان الانفتاق العظيم؛ ولهذا فالوجود الكوني لحمة واحدة كان سابقًا على نشوء الأكوان؛ فالكون الذي كان مرتقًا (ملتحمًا) في وحدة وجود، فُتق انفجارًا عظيمًا؛ فانفصل وتمدّد سماوات وأراضين؛ حتى أصبح أكوانًا: {أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا}[121].

ولأنَّ أساس الخلق وجود أوّل؛ فالنّشوء مترتّب عليه خلقًا، وهنا يكمن الخلاف بين من يرى تلك الذّرة وقد انفجرت كونًا بلا خالق، ومن يرى وجود كون مرتق (ملتحم)، وقد انفتق انفجارًا عظيمًا؛ إذ استقل كلّ كون لوحدة وفقًا للمشيئة الخالقة للكون وجودًا، فكان الانفتاق بدفعٍ

[121] الأنبياء: 30.

شديدٍ قد ترك خلفه أثرًا قال عنه البحاث: إنَّه انفجارٌ لتلك الذرة التي لم يتفقوا على تحديد هويَّتها من حيث:

. كيف خُلقت؟

. متى خُلقت؟

. لماذا انفجرت؟

. من الذي خلقها وفجّرها؟

. من الذي شاهدها وجودًا، وكان شاهدًا عليها ساعة انفجارها؟

. وفي أيِّ حيّزٍ كان الانفجار موجودًا أم إنَّ الأمر كلّه افتراضات لم تثبت حتى تصدر الأحكام بها وتصدر عليها؟

ونحن لم نقل: (انفتاقًا) هكذا افتراضًا، بل الانفتاق حقيقة لا يعلمها إلَّا الذي أمر بفتقهنّ أكوانٌ طباقًا، وهو الذي خلق اللاشيء قبل أن يكون شيئًا فكانت حركة الانفتاق بين العلوّ سماوات، والدّنوّ أراضين؛ قال تعالى: {تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ

حَسِيرٌ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ}[122].

نعم. إنَّها الأكوان وقد فُتقت فراغًا تملؤه الطّاقة والمادّة؛ موت وحياة مثل ما ملأت كوننا الدّنيوي، الذي أصبح بانفتاقه محاطًا بفراغ عظيم كغيره من الأكوان الأخرى، والفراغ كما يشكّل الحيّز الأكبر في كوننا يشكّل حاضنة لكلّ كون من الأكوان السبعة الطباق؛ إذ لا احتكاك، ولا تماس، ولا اصطدام، والحركة والتمدّد بلا عوائق.

وكما أنَّ تعدّد الأكوان معلوم قرآنًا (سماوات وأراضين)؛ فقد أصبح معلومًا لدى كثير من علماء الفيزياء، ومع أنَّنا نعلم أنَّ الأكوان هي سماوات شداد، غير أنَّنا نجهل ما هي عليه إذا ما استثنينا كوننا الدّنيوي الذي لا نعلم منه إلّا شيئًا قليلًا: {وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا}[123]، أي: بُنيت فوق الأرض الدّنيا سبع سماوات مُحكمات؛ ولذلك فالبناء الذي حدث فوق الكون الدّنيوي هو بفعل الانفتاق العظيم الذي زلزل الكون المرتق وجودًا؛ فجعله أكوانًا.

ولأنَّ السّماوات السّبع تعلو الأرض التي نعيش عليها حياتنا الدّنيا، فهي أكوان طباق، أوَّلها كوننا الدّنيوي، وفوقه ستّة أكوانٍ؛ ممّا جعل أرضنا الدّنيا وسماءها كونًا منفصلًا (مفتقًا) عن الأكوان الستة التي تعلوه.

---

[122] الملك: 1 – 5.

[123] النبأ: 12.

فقوله: {وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا} يدلّ على الأرض الدّنيا وما فوقها من سماوات، ممّا يجعل الكون الأوّل الذي نحن جزء فيه هو: (السّماء والأرض معًا)، وإذا أردنا أن نعد السّماوات السّبع؛ فهي لا تعد إلّا أكوانًا (أرض وسماء)، فالكون الأوّل (أرض دنيا، وسماء دنيا)، وفوقهما الكون الثّاني: (أرض وسماء)، ثمّ تأتي الأرض الثالثة والسّماء الثّالثة: (كون ثالث)، وهكذا تتعدّد الأكوان من الكون الأوّل إلى الكون السّابع سماوات وأراضين؛ مصداقًا لقوله تعالى: {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ}[124].

ولذا فعندما يوجّه القول لأهل الأرض تذكر السّماوات السّبع، ولكن عندما يوجّه القول لأهل الكون الدّنيوي: (السّماء والأرض الدّنيا)، تصبح السّماوات من فوقهن ستّ سماوات (أكوان): {وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ}[125]. والسّبعة طرائق هي (السّبع الشداد) أي: السّماوات السّبع؛ ومن ثمّ ينبغي أن يؤخذ المعني مفهومًا، وليس لغةً.

ومن هنا؛ فقوله: {خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ} الخطاب موجّه لأهل الأرض الدّنيا، الذين لا فواصل بينهم وبين السّماء الدّنيا، التي تفصلهم عن الكون الثّاني: (أرض وسماء)، والذي هو الآخر ينفصل عن الكون الثّالث أرضًا وسماء، وهكذا هي الطرائق سبعة أكوان.

---

[124] الطلاق: 12.

[125] المؤمنون: 17.

والأكوان السّبعة بأسباب الانفتاق العظيم نشأت مرتّبة طبَقًا فوق طبق، من السّماء الدّنيا إلى السّماء السّابعة، ولا اختلاف في طوابقها المملوءة فراغًا واسعًا طاقة وحيويّة: {الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا}[126]؛ فالذي خلق سبع سماوات (أكوان) خلقها من لا شيء؛ إذ لاشيء يكون إلّا مخلوقًا، أي: بما أنَّها أصبحت سبع سماوات مخلوقة فهي قد أصبحت شيئًا، وبما أنَّها أصبحت شيئًا فقد اختلفت عمَّا كانت عليه لاشيئًا. ومن هنا نستوقف أنفسنا وعقولنا أمام المفهوم اللغوي للجملة السَّابقة التي قالت: (فقد اختلفت عمَّا كانت عليه لاشيئًا) فهذه الجملة تمركزت مفهومًا على كلمة: (كانت لاشيئًا)؛ لأنَّ كلمة (كانت) التي ربطت المعنى بالزّمن الماضي، وهو السّابق على الوجود الكوني؛ تثبت لنا أنَّ السّماوات كانت لاشيئًا، وإذا سلمنا بذلك مفهومًا فعلينا أن نعترف بوجود اللاشيء قبل اعترافنا بالشيء، وهذه محطة فكريّة وعقليَّة مهمَّة جدًّا؛ ولذا فلو قَصُرَ تفكيرنا على الشيء مصدر الأشياء فقد اعترفنا بخلق الوجود الأوَّل من الشيء (الكون وجودًا)، ومن ثمَّ نعترف بأنَّ أصل الوجود تلك الذَّرة المفترضة افتراضًا ليس إلَّا، أي: وكأنَّنا نقول كما قال لورانس كراوس ومن والاه من الفيزيائيين: إنَّ الكون خَلق نفسه ولا خالق له؛ فإذا سلمنا بهذا الأمر فكأنَّنا مثل مَنْ لم يتيقّن حقيقةً أنَّ الله خلق سبع سماوات طباق؛ ومن ثمَّ فعلينا أن نعترف بأنَّ الشيء لا يوجد خلقًا إلَّا من لاشيءٍ، وعلينا أن نسلِّم بذلك؛ مصداقًا لقوله تعالى: {أَيُشْرِكُونَ

[126] الملك: 3.

مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ}[127]، فقوله: {مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا} تدل على عدم الوجود السابق على وجود الشيء، وهو الذي منه تخلق مادة الأشياء، وهو الذي يخلق من غير مادة، أي: من غير شيء؛ فهو إن أراد شيئًا أبدعه بدعًا؛ حيث لا سابق على الشيء إلَّا اللاشيء، ولا سابق على اللاشيء إلَّا الإبداع بالأمر: (كن): {بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}[128]، وقال تعالى: {هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا}[129]، هنا تأتي المحاجة لمن حاجج بغير حُجّة (الإنسان) الذي لم يكن شيئًا فأصبح شيئًا، وهذه المجادلة تثبت أنَّ وجود اللاشيء دائمًا سابق على وجود الشيء، ومع ذلك فلا وجود للشيء واللاشيء إلَّا من مشيءٍ شاء لهما أن يكونا بين مستحيلٍ ومعجزٍ وممكنٍ.

وعليه:

فالسَّماوات الطِّباق (أكوان) كانت مُرتقة (مُطبِقة) بعضها على بعض، ولا فواصل فراغية بينها، ومع أنَّها مُرتقة، فإنَّها تعدّ وجودًا هائلًا؛ فالكون المرتق (الملتحم) كما يتمدّد شدّة حرارة، وشدّة برودة، يتمدّد بينهما اعتدالًا مناسبًا للحياة؛ فخلقت الأزواج من تلك البيئة المعتدلة، وهي التي أصبحت أرضًا دنيا بعد هبوطها وهبوط آدم وزوجه خليفة فيها:

---

[127] الأعراف 191.

[128] البقرة 117.

[129] الإنسان 1.

{وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ أَنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً}[130]، أي: بعد الانفتاق العظيم هبطت الأرض، وهبط على ظهرها الخلق الأوّل: (أجناسًا وأنواعًا)، وفي المقابل ارتفعت السّماء الدّنيا، ومن فوقها ارتفعت بقية السّماوات السّبع الطّباق؛ فكانت أكوانًا محاطة بالفراغ العظيم الذي هيّأ الحركة، ومهّد سبل التمدّد الكوني بين نهاية وما لا نهاية: {وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَأَنَّا لَمُوسِعُونَ وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ}[131].

ومع أنَّ علماء الفيزياء يرون خَلق الكون من انفجار تلك الذّرة التي وصفوها بتناهي صغرها، فإنَّه لا أحد منهم ولا من غيرهم شاهد تلك الذّرة المشار إليها بالانفجار قبل أن تنفجر؛ فهم فقط اكتشفوا أثر الانفجار، ولكن كما سبق تبيانه كيف؟ وأين؟ ومتى؟ لا أحد يعرف.

ولأنَّه لا إجابة، إذن: في دائرة الممكن المتوقَّع وغير المتوقَّع كلّ شيء ممكن، أمَّا في دائرة المعجز فلا أحد له علمٌ به إلَّا الأنبياء والرُّسُل الكرام، وفي المقابل بقي المستحيل مستحيلًا ولا يعلم سرّه إلَّا الله جلَّ جلاله.

ولهذا فنحن نرى: انفجار الأكوان (سماوات وأراضين) حدث من الكون المفتق انفجارًا؛ فكان التمدّد متسارعًا؛ من أجل الوجود بداية

---

[130] البقرة: 30.

[131] الذاريات: 47 . 49.

ونهاية، ومعرفتنا وعلمنا جاءا من المنزَّل قرآنًا؛ وفقًا لما قاله الله –تعالى– على لسان نبيه محمَّد عليه الصَّلاة والسَّلام.

وحتى لا يأخذ أحد عنوان الانفجار العظيم تحت أيّ علّة، ليسوّقه وكأنَّ الشكّ لا يلاحقه؛ فليقارن بين وجود ما وُصف بالذّرة المتناهية في الصّغر، وهي لم تُرَ مِن أحدٍ على الإطلاق، ووجود كون ملتحم أخبر عن وجوده قرآنًا، ثمّ انفتق انفجارًا؛ فإيّهما أقرب للعقل: شيء لم يشاهد ويقال عنه: قد انفجر، أم شيء أخبر عن وجوده، ثمّ انفتق حقيقة؟ {أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا}[132].

ولذا كيف يصدّق قول من يصف تلك الذّرة التي لم يرها، ولا يصدّق قول من أوجد الكون مرتقًا، ثمّ فتقه يتمدّد في تسارعه بين مشاهدة وملاحظة قابلة للتقصّي العلمي الدّقيق وفقًا للمكن؟

ومع أنَّ علماء الفيزياء والفلك يبذلون الجهد من أجل معرفة ما أطلق عليه: (الانفجار العظيم)؛ فإنَّهم حتى الآن يجهلون معظم حقيقته، فالانفجار لا شكّ أنَّه عظيم هائل، ولكن انفجار ماذا؟ أي: هل هو انفجار ما تمَّ وصفه بتلك الذّرة، أم إنَّه انفجار شيء آخر؟ وكيف يُسلّم بأنَّه انفجار ذرة، ولم يقدّم الدّليل على وجود الذّرة؟ وإذا كان التحدث عن الذّرة هو تحدث عن وجود؛ فهل يكون الوجود في غير مكان وزمان؟

[132] الأنبياء: 30.

وبما أنَّ الانفجار الكوني حدث لاحقًا على وجود الذّرة المتناهية في الدّقة، فهل يمكن أن يتحقّق الانفجار لو لم يكن المكان والزّمان سابقين عليه ومحتويين له وجودًا؟

ولأنَّ البحاث لم يقفوا على لحظة الانفجار العظيم، ولا على الزَّمن الذي كانت فيه الذّرة قبل انفجارها إذن: كيف لهم بوصف المنفجر بالذّرة وهم لا يعلمون حقيقة وجودها؛ كونه لا أحد منهم ولا أحد ممن سبقهم كان وجوده سابقًا على وجودها حتى يصفها بأنَّها الذّرة؟

ولأنَّه لا يقين (لا حُجّة)؛ فلِمَ لا يلتفتون إلى رتق السّماوات والأرض وانفتاقها أكوانًا؟ فلو التفتوا بحثًا لوجدوا أثرًا شاهدًا، وبخاصّة أنَّهم متيقّنون من أنَّه لا إمكانيَّة للوقوف عند لحظة الانفجار العظيم، واللحظة التي تسبقه.

وعليه:

ألا يكون من الأفضل أن ينطلق العلماء الفيزيائيون في سعيهم البحثي من شيء ذُكر تفصيلًا عن الكون الذي يأملون معرفته، أم إنَّه من الأفضل أنْ يتجاهلوه، ويتمسّكوا بأحكام لم يتّفق عليها حتّى علماء الفيزياء أنفسهم؟

ثمّ، ألا يكون من الأفضل أن يسعى علماء الفيزياء والفلك بحثًا علميًّا في شأن الكون من شيء مخلوق، أم من الأفضل أن ينطلقوا من شيء غائب بفعل الانفجار الذي لا يسمح بالتجاوز إلى ما قبله؟

أي: إذا تمسّك علماء الفلك والفيزياء بتلك الذّرة المفترضة؛ فكيف لهم بها ولا إمكانيَّة لبلوغها بأسباب الانفجار الذي يحول بين جهود الباحثين وما يُظنّ أنَّها النقطة أو الذّرة المتناهية في الصّغر؟

ومن ثمّ؛ فكيف يسلّم بعض علماء الفيزياء أنَّ الكون خُلق من لا شيء، ولا خالق له، ولا يسلّمون بمن قال: أنا الخالق، الذي خلق كلّ شيء؟ أي: كيف ينسبون فعل الخلق لمن لم يقل عن نفسه: أنا الخالق، ولا يقبلون نسبه لمن قال: أنا الخالق؟ فالخالق لم يُخفِ نفسه حتى يدّعي البعض بما ادّعى به، أو أن يَنسُب شيئًا إلى ما لا ينتسب إليه.

ولأنَّ القاعدة العلميَّة تقول:

-كلّ شيء مخلوق من ورائه خالق.

-والانفجار شيء.

إذن: الانفجار مخلوق ومن ورائه خالق.

أمَّا الذين يعتقدون أنَّ الكون قد خُلق من غير خالق، فهم لا يجيبون عن السؤال: كيف انفجر الكون؟

ولذلك فهم يتحدّثون عن خلقه من لا شيء وبغير خالق؛ ومن ثمَّ سيظل السُّؤال يلاحقهم، كيف خُلق الكون من غير خالق؟ وكيف انفجر بلا أمر لانفجاره؟ وأين انفجر حتى أصبح كونًا عظيمًا من تلك الذّرة المنفجرة؟ وكيف لذلك المتناه في الصّغر أن يلد كونًا متناهيًا في الكبر؟

أمَّا القول بانفتاق الكون ورتقه أكوانًا؛ فهو يعتمد على وجود المخلوق بفعل الخالق، الذي لو لم يكن ما كان الكون، ولا انفتقت منه أكوانًا.

انفتاقُ الأرضِ موتًا وحياةً:

بعد أن حدث الانفتاق العظيم هبطت الأرض الدّنيا بالقوَّة الفراغيَّة حتى استقرّت اعتدالًا جاذبيًّا في فلكها المتوازن، وصعدت السّماء بذات القوَّة المنفجرة تتمدّد إلى النّهاية؛ فشكّلتا كونًا دنيويًّا تملؤه الحيويّة والحياة: {أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ}[133]. يفهم من هذت الآية الكريمة أنَّ شيئًا كان موجودًا ثم أصبح غير موجدٍ ألا وهو الوجود المرتق، وهو الذي لم يحلّ محلّه شيء نعلمه؛ لأنَّ الأكوان الطباق المنفتقة امتدادًا تعني وجود شيء آخر على هيئة أخرى وصفة أخرى، أي: مع أنَّه الانفتاق لذلك الشيء المرتق فإنَّه

[133] الأنبياء: 30.

لم يعد هو كما هو ذلك الشيء المرتق، بل أصبح شيئًا آخر نحن نعلمه أكوانًا طباقًا.

ولأنَّ أمر فتق السّماوات والأراضين بيد الخالق؛ لذا فلا أحد يعلم الكيفيَّة التي بها فتقت السّماوات والأرض، ولا الزّمن الذي فيه فتقت، ولا الصّفة التي جاء عليها الانفتاق العظيم، فلا أحد يعلم بذلك إلّا الذي أمر بفتقها سماوات وأراضين، ولا أحد يعرف الهبوط دنيا إلّا الأزواج التي هبطت على الأرض الدنيا.

ولأنَّ الزّوجين: (آدم وزوجه) المستخلفين في الأرض لم يتركا لنا شيئًا من هذا؛ إذن: فلا حُجّة بين أيدينا، وكذلك لم نعثر حتى الآن على أثر رفاتهما عدمًا لنقول: هذا أثر الأنسان الأوّل، الذي قالوا عنه: قد تطوّر بعد أن كان شبيهَ قردٍ. ولكن الإجابة العلميَّة وفقًا للمعلومة المتوافرة بين أيدينا حُجّة هي: {أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ}؛ فقوله: {وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ} يدلُّ على أنَّ الماء هو الذي بثّ الحياة فيها ليحيا منها ويحيا فيها ما يُحيي (الكائنات التي تعيش تحت التراب والتي تعيش فوقه).

ولذا فُتقت السّماوات والأراضين؛ فكانت أكوانًا، وفي كوننا علماء الفلك والفيزياء يبحثون ويتقصّون، ومع ذلك لم يعلموا إلّا قليلًا؛

ومن ثمّ فكيف لنا بمعرفة أسرار الأكوان الأخرى، ونحن لم نعلم من أسرار كوننا إلّا قليلًا! {وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا}[134].

ولأنَّها أكوان مستقلّة بذواتها؛ فهي أكوان مخلوقة على الخصوصيَّة والنّوعيَّة التي تُميّز كلّ كونٍ عن غيره، وهذه من أسرار الخالق الذي يعلم ما لا نعلم: {وَنُنْشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ}[135].

ومع أنَّ السّماوات والأراضين كانت ملتحمة كونًا لا فواصل بينها، فإنَّ الأرض كانت صالحة لحياة الخلق الأوّل قبل أن تنفتق أرضًا دنيا، وهناك كان نشوء أبينا آدم مثل نشوء النّبات: {وَاللَّهُ أَنْبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نباتًا}[136]، أي: إنَّ أبانا آدم قد خُلق من تراب الأرض جنّة قبل أن تفتق الحياة الدنيا، وهناك أيضًا تمّ اصطفاؤه نبيًّا للخلق الأوّل: (الملائكة والجنّ والإنس)، وهناك كانت جنّة الحياة الأوّلى؛ حيث تمام النّعمة ورغد العيش، وفي المقابل كانت هناك المعصية: {وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى}[137]. أي: إنَّ معصية آدم وزوجه لم تكن على الأرض الدّنيا التي فتقت وجودًا بين موت وحياة، بل كانت على ذلك الكون المرتق في وحدة وجود عظيم، أي: في

---

[134] الإسراء: 85.

[135] الواقعة: 61.

[136] نوح: 17.

[137] طه: 121.

جنَّة عرضها كعرض السّماوات والأرض: {وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ}[138].

ومن هذه الآية يمكن استقراء نهاية الأكوان التي فُتقت بعد رتق أن تعود ثانية إلى ما كانت عليه مُرتقة، وهناك ستكون الجنّة التي يأملها المؤمنون: {كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا أنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ}[139].

إذن: فالخالق وعد بعودة الخلق إلى ما كان عليه خلقًا أوَّلًا، ومن ثمَّ ستطوى الحيّزات الفراغية العظيمة التي فصلت الأكوان، وجعلت منها طرائق سماوية وأرضية؛ وستُرتق من جديد وجودًا عظيمًا (جنّةً ونارًا) ولكلٍّ ثمار عمله: {يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ}[140].

ومع أنَّ الإنسان الأوّل خُلق في أحسن تقويم، وكان في جنّة غير منقوصة، فإنَّه لم يصمد أمام الوسوسة والإغواء؛ فأكل من تلك الشّجرة المنهي عنها؛ فأهبط به وزوجه والجنّ على ظهر الأرض من الحياة العليا إلى الحياة الدّنيا: {قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ}[141]. فقوله: {اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ} المقصود هما: الإنس

---

[138] الحديد: 21.

[139] الأنبياء 104.

[140] الأنبياء: 104.

[141] طه: 123.

والجن، اللذان أصبح بينهما العداء جزءًا من الحياة الدّنيا، وهو العداء الذي لن تطوى صفحاته إلّا بالفتق العظيم يوم يبعثون.

ولأنَّ الإنس الأوّل: (آدم وزوجه) يشكّل طرفًا رئيسًا في مخالفة أمر الله، وأنَّ الجنّ طرف رئيس أيضًا في المخالفة، فكان حكم الهبوط عليهم بلا استثناء: {قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ}[142]؛ فهنا جاء القول موجّه للخطّائين، الذين تمّ تبليغهم بأنَّ الأرض هي نصيبهم في الحياة الدّنيا، وكأنَّ المقصود: خذوا الأرض فهي قد مُنحت لحياتكم، لكم فيها مستقر ومتاع إلى حين، وستظلون عليها ما حييتم، وستموتون عليها، وستحيييون منها ثم تبعثون.

إنَّ قوله: {بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ} تعود على البعض المؤمن بالله –تعالى–وهو البعض الذي أطاع أمره (آدم ومن تبعه من بعده مؤمنًا)، وكذلك تعود على الذي عصاه ولم يستغفر لذنبه ومعصيته (إبليس ومن تبعه من بعده عاصيًا)، ولتبيان ذلك أقول: إنَّ آدم –عليه الصَّلاة والسَّلام–لما عصى ربّه استغفره؛ فتاب عليه، أمَّا إبليس الذي أغوى آدم وزيَّن له الباطل وكأنّه الحق وعصى أمر السجود، ولم يستغفر ربّه (فإنَّها فرصة وقد ضاعت عليه)؛ ولهذا: (ضلّ، وظل)، بمعنى:

[142] الأعراف: 24، 25.

. إنَّ إبليس ضلَّ عن الهداية والسُّجود لآدم غير طائعٍ للحقِّ الذي أمر به الله.

. وظلَّ على معصيته باقيًا فلم يستغفر ربه، حتى يتوب عليه كما تاب على أبينا آدم.

وبهذه العلل بقيَ العداء مستمرًّا بين البعض الطَّائع لربّه والبعض العاصي لربّه، والبعض هنا يعني أربعة أبعاض:

. بعض الإنس المؤمن بالله وحده والطّائع له ولرُسُله الكرام عليهم الصَّلاة والسَّلام.

. بعض الجن المؤمن بالله ورسله: {قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ تَقُولَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا}[143].

. بعض الإنس الكافر بالله ورسله: {وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا}[144].

. بعض الجن الكافر بالله ورسله.

---

[143] الجن: 1 – 5.

[144] الجن: 6.

وجاء في الآية السَّابقة أيضًا قوله: {فِيهَا تَحْيَوْنَ}، ولم يقل: (فيها تُحيون) فتَحْيَوْنَ بفتح (التَّاء) تدلُّ على أنَّهم أنزلوا على الأرض أحياء؛ كونهم قد خُلقوا من أرض الجنّة التي أنبتهم الله في أرضها نباتًا؛ ومن هنا فإنَّ الحياة على الأرض الدّنيا وجودًا هو إحياء خلائق بعضها من بعضٍ على الكثرة، وليس بإحياء من الموت، فالموت الأوَّل هو الذي أُحْيَيَ منه أبونا آدم وزوجه، وهكذا هو حال كل مَن خُلق من التراب بِطِينَهِ المختلفة؛ ولهذا فنحن جميعًا خُلقنا من ظهر أبينا آدم وزوجه نطفة من بعد نطفة؛ ومن هنا فالحياة على الأرض الدنيا هي من النّطفة، أي: حياة من حياة؛ مصداقًا لقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُم مَّنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُم مَّنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ}[145].

وعليه تتضح مراحل الخلق البشري في الآية الكريمة السَّابقة أوَّلًا بأوَّلٍ وفقًا للآتي:

- الخلق الأوَّل الإحياء من التراب (آدم وزوجه).

[145] الحج: 5.

. الخلق الثَّاني من النطفة، وما ترتّب عليها من خلق مختلف من مرحلة عمرية إلى أخرى.

وبمراجعة الخلق الأوَّل والثَّاني نجد أنَّهما يعودان إلى مرحلة الإحياء من الموت الأوَّل؛ ولأنَّ الموت موتتان فإنَّه لا مفرَّ من الموتة الثَّانية؛ قال تعالى: {يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ}[146]؛ وهذه الموتة الثَّانية تأتي من بعدها الحياة الباقية التي يُبعث الموتى إليها أحياء من بعد عدمٍ {كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ}.

وعودٌ على بدءٍ يُطرح التساؤل الآتي:

-كيف يفكّ اللبس بين مفهوم خَلق آدم في الجنّة وخطيئته هناك، وخَلقه من تراب الأرض؟

أقول:

الأرض التي نشأ آدم وزوجه منها كانت في زمن الرّتق مع السّماوات قطعة من الجنّة؛ ولذلك فطينة خلق آدم وزوجه هي من طين الجنّة قبل أن تنفصل الأرض عنها، وتصبح دُنيا (سفلى)، ولكن بعد أن أهبط بهما وبمن معهما من أزواج، لم تبق الأرض قطعة جنّة؛ ولذا فآدم وزوجه لم يخلقا ويحيان من الأرض بعد انفتاقها من ذلك الوجود الأوّل

[146] الأنبياء 104.

(سماوات وأراضين)، بل خُلقا من الأرض قبل الانفتاق العظيم: {فَقُلْنَا يَا آدَمُ أَنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى}[147]. ولا شكّ أنَّ البقاء في الجنّة بقاء في النّعيم، أمَّا البقاء في الأرض بعد انفتاقها من السّماوات أصبحت دنيا، ولم تعدّ عليا كما كانت جنّة.

إنَّ الأرض بعد هبوطها والأزواج التي على ظهرها سُلبت من نعيم الجنّة، ولم يترك لها إلّا شيء من الماء الكفيل بحياة الأزواج المتكاثرة في الحياة الدّنيا وإحياء الأرض: {أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ}[148]. أي: إنَّ السّماوات والأرض عندما كانت مُرتقة في وحدة الوجود العظيم كانت قطعة جنّة، ولكن بعد أن فُتقت؛ فلم يفتق معها من نعيم الجنّة إلّا الماء، الذي يحفظ الأحياء على البقاء الدّنيوي: {وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ}.

ولأنَّ نشوء الإنس نشوءٌ غير كامل؛ فكانت الخطيئة من الإنسان الأوَّل: (أصل السّلالة البشريّة)؛ ولذلك لو أخذ آدم بأمر النّهي، وبقي ممتنعًا عن الأكل من تلك الشّجرة، لما أُهبط به أرضًا للحياة الدنيا، وهذا القول بالنسبةِ لي لا يزيد عن كونه افتراضًا؛ لأنَّ مشيئة الله أعظم؛ ذلك أنَّ هذا الافتراض يقودنا إلى القول الافتراضي: لو لم يعصِ آدم ربّه لكنَّا

---

[147] طه: 117.

[148] الأنبياء: 30.

جميعنا في الجنة ولا وجود للنَّار، وكما قلنا: مشيئة الله أعظم؛ فجعلت المتخالفين يحيون الحياة الدّنيا بعد أن كانوا يحيون الحياة العليا.

والتساؤل:

–متى بدأت الحياة على الأرض؟

الفيزيائيون يقولون: لقد بدأت الحياة على الأرض بعد أن بردت من حرارة ذلك الانفجار العظيم؛ فتكوّنت بحارها وجبالها وسهولها وغلافها الجوي، حتى أصبحت جاهزة لاستقبال الحياة، وقد نادى بعض العلماء الفيزيائيين وعلى رأسهم العالم الألماني ريختر richter 1870م، والعالم هلمهولتز Helmholtz 1894م: إلى أنَّ الحياة انتقلت إلى الأرض من كوكب آخر عن طريق بذور نبات، أو حويصلات جراثيم الميكروبات، أو الأطوار ذات البيات، أو السّكون في كائنات أخرى، أو أنَّ أحد النيازك قد حمل كائنات حيَّة لكوكب الأرض[149]، وهناك من يرى أنَّ الأرض مرّت بزمن ارتفاع درجات الحرارة، ثمّ حلول العصر الجليدي، ثمّ أخيرًا ظهر الإنسان بعد أن تمت تهيئة ظروف حياته[150].

[149]http://st-takla.org/books/helmy-elkommos/biblical-criticism/204.html

[150]Cosmology: The Science of the Universe. Second edition. Edward Harrison. Cambridge University Press, 2000

وهنا تكمن حقيقة مفادها: أنَّ دلائل تشير إلى وجود علاقة بين الأرض وكواكب أخرى، وهذا يؤكّد أنَّ الأرض كانت غير مستقلة عن غيرها من خلائق الكون (السّماوات والأرض)، أي: إنَّ الكائنات والنباتات والنيازك السّماوية التي يعتقد أنَّها قد هبطت على الأرض تعدّ مؤشرًا ودليلًا على أنَّ الأرض والسّماوات كانتا رتقًا.

ولذلك فالأرض لو كانت نتاج الانفجار العظيم ذا الحرارة العالية كما قال عنها علماء الفيزياء، والتي لا توصف بأيّة حرارة نعرفها، لكانت الأرض رمادًا غير صالح للحياة: (النَّار لا تترك إلّا الرّماد)؛ ولكن لأنَّها كانت مرتقة في السّماوات، ثمّ فتقت؛ فأهبط بها وبمن على ظهرها إلى الحياة الدّنيا؛ فأصبحت الحياة على الحاجة بعد أن كانت على النّعيم إشباعًا.

ومع أنَّ علماء الفلك والفيزياء يتحدّثون عن الأرض؛ كونها نتاج انفجار تلك الذّرة، وليست نتاج الانفتاق العظيم، الذي سبق الحديث عنه، فإنَّ الأرض لو كانت على تلك الحرارة الموصوفة شدّة لكانت عدمًا (حيث لا حياة) وهذه لا تكون صفة الأرض التي خلقت منها الأزواج، وأهبط بها أرضًا، وجعل الله فيها الماء: {سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ}[151].

[151] يس: 36.

وكيف نسلّم بأنَّ الأرض كانت على الحرارة العالية، وربّنا يقول: {أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ}[152]، أي: كيف نقبل بذلك والماء قد أهبط به مع الهابطين الذين لا يحيون إلّا به؟!

ومع أنَّ الإنسان الأوّل خُلق من الأرض؛ فإنَّه لم يُخلق من أرضٍ رمادٍ (عدم)، ولا من الأرض الدّنيا، بل خُلق من الأرض العليا التي ترابها وطينها وصلصالها جنّة؛ ولذلك فحياة الإنسان الأوَّل كانت حياة عُليا، أمَّا الحياة على الأرض الدّنيا فهي الحياة السُّفلى.

وبمقارنة ذلك النَّعيم مع ما يتوافر على سطح الأرض الدّنيا؛ فلا مقارنة؛ وهنا تكمن سُفليَّة الحياة الدّنيا، وفي المقابل ترتقي حياة النّعيم وتعلو ارتقاءً.

ولذلك في الأرض العليا: (المرتقة مع السّماوات) كان نشوء الحياة فيها من كلّ زوجين اثنين، وقبل الزّوجين كان الملائكة والجنّ من خلائق الجنّة، ولكن نتيجة الإغواء الذي شبَّ بين الإنس والجنّ أهبط بهما والأرض؛ إذ أصبحت أرضًا دُنيا بعد أن كانت أرضًا عُليا، وظلَّ الملائكة في السّماوات العلى غير مخالفين لأمر الخالق، ولا يتنزّلون للأرض إلّا لأمرٍ: {تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّنْ كُلِّ أَمْرٍ}[153]، أي:

---

[152] الأنبياء 30.

[153] القدر: 4.

كلما لزم أمر تنزّلها تُنزل: {يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ}[154].

والأرض بعد أن أصبحت دُنيا قلّ شأنها عمّا كانت عليه؛ وذلك بفقدانها صفات الجنّة التي لم يعدّ منها شيء، إلّا بعضًا من الماء؛ فالأرض خُلقت وهيئت للحياة العليا، ثمّ فُتقت بما هُيئت به للحياة الدّنيا، فكان الانفتاق العظيم انفتاقَ أكوانٍ (سماوات وأراضين) وهو النّشوء العظيم، الذي به تمدّد الكون متسارعًا في اتساعه، وإنَّه لمن الصّعب معرفة أسراره إلّا مؤشرات: {طه مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى تَنْزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى}[155].

وعليه:

فإنَّ أساس الخلق كون مُرتق، ثم كون مُفتق، وفي كلتا الحالتين الخالق واحد؛ فنحن بني آدم لا نعلم إلّا ما أعلمنا به الخالق وحيًا موحى، ومع ذلك لم يُظهرنا على ما أعلمنا به إلّا بمقدار؛ ومن ثمّ فكلّما اكتشفنا شيئًا تمكّنّا من معرفة حقيقة ذلك الشيء، وفي المقابل لم ننتج حقيقة؛ فالحقيقة (وراء كلّ مخلوق خالق)؛ ولذلك فمنتج الحقيقة هو خالقها، أمّا

---

[154] آل عمران: 124.

[155] طه: 1 – 6.

مكتشفها فهو المتعرّف عليها، وبين هذا وذاك قد يظهر من يدّعيها وهو من لم يكن منتجًا لها ولا متعرّفًا عليها.

الموتُ

الموتُ جزءٌ من الوجودِ الذي خُلق خَلقًا فكان جنبًا إلى جنب مع الحياة التي تساويه بقاء في الوجود الدنيوي، وهو الذي لا يساويها بقاء في الوجود الأخروي؛ ولذا فالموت مخلوق مثله مثل غيره من المخلوقات، ومع أنَّ الموت مخلوقٌ سابق على عمليّة الإحياء فإنَّ وجوده لم يكن سابقًا على وجود الحياة؛ ومن هنا فالإحياء منه إحياء وجود خلقي ليس إلَّا؛ قال تعالى: {يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ}[156]، هذه الآية تثبت أنَّ عملية الإحياء تأتي من الموت، وكأنَّ الخَلق الأوَّل مادّة ساكنة فيها معطيات الإحياء الذي لا يكون إلَّا بأمر المحيي المتّصف بهذه الصّفة، وهي الصفة التي تخرج الحي من الميت؛ فقوله: {يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ} يعنى: أنَّ فعل الإخراج من الموت لا يكون إلَّا بيد المحيي (المخرج)، وكذلك بالتمام فعل إخراج الميِّت من الحيِّ لا يكون إلَّا بيد المخرج {وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ}؛ ومن هنا وجب التمييز بين الفعل والصّفة كما جاء في قوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ}[157].

في صدر هذه الآية قال: {يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ}، ثمّ جاء القول اللاحق عليها: {وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ}، أي: في صدر الآية قال:

---

[156] الروم: 19، 20.

[157] الأنعام: 95.

(يخرج) وفي تابعها قال: (مخرج)؛ ومن هنا فكلمة: (يخرج) تدل على الفعل، وكلمة: (مخرج) تدل على الصّفة، التي خصّ الله نفسه بها؛ إذ لا إحياء ولا إماتة إلَّا بيد الحي: {وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ}[158]؛ فقوله: {يحيي ويميت} ترسّخ أفعاله ومقدرته وحده على الإحياء والإماتة، أمَّا صفته (المحيي والمميت) فترسخ الصفة التي هو عليها إحياء وإماتة؛ ولذلك عندما جاء قوله: {يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ}؛جاء لإظهار المقدرة الفعليَّة على الإحياء والإماتة، ولما جاء قوله: {يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ} جاء لتبيان المقدرة الفعليَّة على الإحياء والإماتة بقوله: (يخرج)، أمَّا لتبيان الصفة التي لا يستمد فعل الإحياء والإماتة إلَّا منها فقال: {مُخْرِجُ}.

وكما سبق تبانه مع أنَّ الموتَ واحدٌ فإنَّ الإماتة تحدث مرَّتين: **الموتة الأولى**، وهي التي جاءت من خلق الوجود الذي منه يُخلق الأحياء؛ حتى يحيون حياتهم الدُّنيا، أمَّا **الموتة الثَّانية**، فهي: الموت المؤدّي إلى العدم الذي منه سيبعثون أحياء في وجودٍ آخر لا موت من بعده.

ومع أنَّ الإحياء الأوَّل جاء من الموت فإنَّ الإحياء الثّاني لا يأتي إلَّا من العدم (الأثر) الذي سبق وإن كان حيًّا: {كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ}[159].

---

[158] آل عمران: 156.

[159] القصص: 88.

وفي كلّ الأحوال لا مفرّ من الموت؛ فالموت حكم مكتوب مِن خالق الموت، والحكم بالموت نافذ، ولا مرد له أبدًا، وهو كما يلاحق الأحياء ليقضي عليهم، يلاحق ذاته حتى يقضي عليها؛ ولهذا فمع أنَّ للمرض علاجًا فإنَّه لا علاج للموت ولا مفرَّ منه إلَّا بموته سرمديًّا؛ ومن هنا نعرف أنَّ السرمديّة كما تلحق الموت بقاء موت؛ فإنَّها تلحق الحياة بقاء حياة.

ومع أنَّ القتل الباطل المؤدّي إلى الموت محرَّمٌ فإنَّ الموت الذي يقضي على الأحياء حكمٌ نافذ، ولا تحريم فيه؛ ولهذا سَيُسأل القاتل وسيحاسب على فعل القتل، أمَّا الموت الذي لا مفرّ منه ولا حذر فهو الحقّ العدل؛ قال تعالى: {الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ}[160]، وقال تعالى: {كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ}[161].

إذن: فالموتُ من حيث كونه وجودًا هو: الوجود السَّاكن وغير المتشكّل بعد على خصوصيّة الهيئة والصّورة، وهو الذي منه خُلقت الأجسام والأشكال وأُحييت على الهيئة والصّورة؛ كما هو حال الأرض التي خُلقت هامدة على حالة من الموت، حتى أنزل الله من السَّماء ماء عليها فأحياها؛ قال تعالى: {وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ

---

[160] آل عمران: 168.

[161] آل عمران: 185.

اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ}[162]، وقال تعالى: {وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ}[163].

ومن هنا علينا أن نفرّق بين مفاهيم ثلاثة إذا أردنا أن نخصّ مفهوم الموت دلالة ومعنى، وهي:

الموت: الموت مخلوق وجودًا مثله مثل خلق الحياة وجودًا، وهما المخلوقان الأوّلان على السُّكون ثم التمدّد مع التمدد الكوني المتسارع في تمدده إلى النهاية، وهذه الحالة هي التي بها يُفنى الموت بالموت.

القتلُ قتلان:

- **القتلُ الحقّ**: وهو الذي يلحق من بذل الجهد وجاهد في سبيل إحقاق الحقّ وإزهاق الباطل عدلًا ولا مظالم.

- **القتلُ الباطل**: وهو قتل النفس التي حرّم الله قتلها بغير حقّ: {وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا

---

[162] الحج: 5.

[163] العنكبوت: 63.

فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا}[164].

. **الوفاةُ**: استكمال حقوق واكتمال أعمار ليس لها إلَّا أن تنتهي، وهي غير منقوصة شيئًا؛ ومن ثم فلها ما لها وعليها ما عليها؛ ولذا فالوفاة استكمال مهمّة لا تنتهي إلَّا بالموت، وهذا ما لم يحدث بالقتل؛ إذ في بعض الأحيان يُقتل بعض النَّاس قبل أن يستوفوا المهام التي خلقوا لأدائها؛ ومن هنا سيجاز المتوفون بما عملوا؛ سواء أكان خيرًا أم شرًّا: {الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ}[165]، وقال عزَّ وجلَّ: {الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ}[166].

وعليه:

الموتُ واحدٌ، ولا يكون إلّا بيد الواحد جلَّ جلاله، ولا يتعدّد على الرّغم من ثنائيّة الإماتة وتعدّد الأموات، ومن هنا تتَّضح مفاهيم الواحديَّة من حيث التفرُّد بالأمر خلقًا وإعجازًا وحياةً وموتًا وعدمًا وبعثًا.

---

[164] النساء 92، 93.

[165] النحل 28.

[166] النحل 32.

ولأنَّ الحياة الدّنيا يلاحقها الموت؛ فهي لم تكن حياة بقاء مثل الحياة على الأرض الجنّة؛ ولذلك فكلّ تزاوج وتعدّد يصاحبه التناقص ولا ديمومة للبقاء: {كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ}[167].

وسيظل الموت يلاحق الأحياء المتكاثرين إلى أن يقضي عليهم جميعًا، ويومها سيكون الموت آخر الأموات، ومن بعده جميع الأموات سيُبعثون إلّا الموت لن يُبعث؛ إذ لا مكان له في الحياة الخالدة: {وَاللَّهُ أَنْبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا}[168].

إذن: خُلق الموت كما خُلقت الحياة؛ وهو الأمر الطبيعي الذي لا بدَّ منه ما دامت الحياة الدّنيا، ويعدُّ الموت حقًّا؛ لأنَّ الجميع متساوون في حقِّ تملُّكه بالحياة؛ ومن ثمَّ لن يأخذ أحدٌ هذا الحقّ من الآخر أو حتى يعتدي عليه، أو ينوب عنه فيه.

ولهذا فالموت آتٍ لا محالة، وبما أنَّه كذلك فلا خوف منه؛ لأنَّه لا أحد يستطيع أن يفعل لك شيئًا أكثر من ذلك الفعل، ومرّة واحدة بعد الإحياء الأوَّل، ولن يتكرّر. ومع العلم عندما يفعل الموت ويؤدّي وظيفته بالقضاء على الحياة؛ فلا بدَّ له من أن يموت ويفنى، أي: لن يكون له وجودٌ من بعد الفناء؛ ومن ثمَّ فيوم موته ستنبعث الحياة من جديد، ويصبح للحياة معنًى وأهميّة؛ لأنَّها بلا مخاوف ولا موت يلاحقها.

---

[167] الرّحمن: 26.

[168] نوح: 17، 18.

فالموت الذي كان يخيف كثيرًا من الأحياء لم يعد على قيد الحياة، ولن يُبعث للحياة من جديد؛ ومن ثمَّ: {فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ}[169] أي: بعد البعث كلّ من عمل عملًا يجده في انتظاره ليجز به ثوابًا أو عقابًا.

وعليه: فلا مفرّ من الموت، ولكن بأعمالنا يمكن لنا الفرار إلى الجنّة أو النَّار، وما أجمل المنطق الذي تحتويه الآية السَّابقة: {فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ}؛ ولذا لن يعاقب الله أحدًا إلّا بما قدّمت يداه، وهذا المنطق إحقاقُ حقٍّ به تتحقق العدالة.

إنَّ هذا الأمر يتعلّق بالموت الطَّبيعي وفاةً، أمَّا عندما يصبح الموت مطلبًا في مواجهة ظلم، ويجعل المواجهة في مرضاة الله فالأمر شيء آخر؛ قال تعالى: {فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ}[170]، أي: إنَّ رفض الباطل والقبول بدفع الثَّمن موتًا؛ من أجل إحقاق الحقّ في مرضاة الله؛ موتٌ وثمنه الخلود في الجنّة الخالدة؛ ولذا فالموت إمّا أن يكون طبيعيًّا، وإمَّا أن يكون بثمن قيمته بالتمام تساوي قيمة الرّفض للباطل والإقدام على إزهاقه.

---

[169] الزلزلة: 7، 8.

[170] مُحمَّد: 4.

ومن ثمَّ فكلّما اشتدّت التأزّمات وهُدّد الآخرون بالموت من قِبل من هُم في دائرة الرّفض؛ أصبح الموت مطلبًا مع توافر الرَّغبة؛ ولهذا يفقد الشُّرطي سلاحه، والواعظ حُجَّته، وقمّة السُّلطان كرسيّه ويصبح كل منهم ضحيَّة بلا ثمن عندما تكون أقوالهم وأفعالهم على غير حقّ؛ ومن هنا فإذا قرّر الرّافض للباطل قبول الموت ثمنًا لنيل الحريّة والحياة الخالدة كان موته وافيًا كمالًا وجمالًا.

ولذا فمن يقرّر أن يواجهك عن إرادة؛ فلا تستهين بأمره، وعليك أن تعرف أنَّ الرّفض عن إرادة كفيلٌ بأن يُنجز في دائرة الممكن غير المتوقَّع ما لم يكن في دائرة الحسبان متوقَّعًا.

لذلك فالموت عن إرادة وإن كان سالبًا للحياة يتحوّل إلى قيمة عالية تنال الاعتراف والتقدير والاعتبار عندما يكون عملًا يرجو الإصلاح أو بلوغ الحلّ، أو صدّ خطر يحاك ضدّ الشّرف والدين والقيم الحميدة والفضائل الخيِّرة؛ ولهذا تُعد العُدّة إرادة؛ من أجل تحرير الأرض، وصون العِرض، وإرهاب الذين يريدون الجبن سائدًا بين النَّاس.

وعليه: فإنَّ النّصر لا تُحقّقه المعدَّات الحربيَّة مهما تطوَّرت، بل النَّصر عبر التَّاريخ يحقِّقه من يمتلك القرار مع المقدرة على التنفيذ، مما يجعل قبول الموت من أجل الحياة المطلب الرَّئيس؛ ولهذا فالشُّعوب التي

حرّرت أراضيها حرَّرتها بهذا القرار حتّى ولو اتَّخذت سلاحها الحجارة[171]، والعرب تقول: من يطلب الموت في سبيل الكرامة تكتب له الحياة الخالدة.

ومع أنَّ الموت مخلوقٌ مثل غيره من المخلوقات العظيمة، فإنَّه ليس في حاجة لمن يطلبه، فهو آتٍ يقينًا، وله مهمّة كُتبت عليه: موت الأحياء؛ ولهذا مهما بلغ التكاثر فلا مغالبة للموت في الحياة الدنيا، ولا حذر منه، إنَّه آتٍ لا محالة سلمًا وحربًا: {أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ}[172].

ومع أنَّ الموت لا يلاحق إلَّا الوجود الحي، فإنَّه من بعد مغالبته للوجود الحي والقضاء على الأحياء جميعهم موتًا؛ فليس له إلَّا أن يستكمل مهمّته التي خُلق من أجلها؛ ولا استكمال لمهمة الموت بعد أن يقضي على كلّ من كان حيًّا من المخلوقات إلَّا القضاء على نفسه إماتةً، أي: بعد أن يقضي على المخلوقات الحيّة كلّها ولم يعد أحد على قيد الوجود حيًّا؛ فلا بدَّ وأن يقضي على وجوده، وبموت الموت يظل موته سرمديًّا؛ إذ لا أمل له في الحياة الباقية.

وعليه: فإنَّ الموتَ عدلٌ من الله تعالى، فلا أحد ينوب فيه عن الغير، ولا يَؤْخُذُ أحدًا بدلًا من آخر، ولا يكون على حساب آخر أبدًا،

---

[171] عقيل حسين عقيل، الرّفض استشعار حرية، شركة الملتقى، بيروت، 2011م، ص 184 . 186.

[172] النساء: 78.

ولا يأتي في غير موعده: {كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ}[173].

ولذا فالموتُ لا يخيف، بل الذي يخيف المرض، والظّلم، والعدوان، والسّلب والنّهب؛ ولهذا يسعى الإنسان إلى تفادي وتجنب كلّ ما يؤدّي إلى ألمٍ، ولكن عندما يصبح الموت حقًّا فالمطالبة به ضرورة، والإقدام عليه يُخلّص من المؤلم والمؤذي، فالموت وإن كان موتًا ينبغي الإقدام عليه إن كان الإقدام عليه في مرضاة الله.

وعليه: فإنَّ الموت لا يلاحق إلّا الأحياء وجودًا؛ ولهذا بما أنَّ الإنسان على قيد الحياة وجودًا، فوجوده على قيدها يمر بأربع مراحل: (الموتتان، والإحياءان) وهما وفقًا للآتي:

المرحلة الأولى: وجود عناصر خلقك موتًا.

المرحلة الثَّانية: إحياؤك وجودًا من الموت.

المرحلة الثَّالثة: إماتتك من بعد وجودك الأوَّل، وتحولك رفاتًا بالية (أثرًا وعدمًا).

المرحلة الرَّابعة: الإحياء من الموت والانتقال من الحياة الدُّنيا إلى الحياة العُليا الباقية، ولكلٍّ عمله؛ قال تعالى: {يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ

[173] الرحمن: 26، 27.

وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ}[174]، فقوله: {يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ} يعني كما سبق تبيانه: إخراج الأحياء من المادة القابلة للإحياء وهي ذات الوجود الأوَّل عن غير هيئة ولا صورة خاصّة، أمَّا قوله: {وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ} فيعني مما يعنيه إخراج الموتى من جديد لعالم الحياة الباقية.

ولمتسائل أن يتساءل:

من هو الميّت الذي سيتم إخراجه من الحي؟ أي: كيف يمكن لنا أن نعرف المقصود بالميت والحي وفقًا للآية {وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ}؟

أقول: المقصود بقوله: {وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ} هو الميت الذي سبق وأن كان حيًّا، وقد مات وأصبح عدمًا وأثرًا.

أمَّا المقصود بقوله: {مِنَ الْحَيِّ} هو: إخراج الذي كان ميّتًا من ذلك الأثر الوجودي عدمًا، مما يجعل هذا الإخراج مختلفًا عن ذلك الإحياء الأوَّل من الطِّينة الخلقيَّة للأنواع والأجناس، أي: إنَّه إحياء الموتى من آثارهم التي أصبحت عدمًا دالًّا على نوعٍ أو جنسٍ سبق وأن كان حيًّا، وهذا الأثر عدمًا ما زال باقيًا (شاهدًا) على كلّ نوع وجنس، وهذا المفهوم أيضًا يدلُّ على أنَّ بقايا الرّفات البالية التي أصبحت عدمًا وأثرًا باقيًا، ولم تختف من الوجود؛ فهي ما زالت شاهدة على حياة سابقة لأولئك الأحياء؛ كونها لم تختف بالمطلق أبدًا عن قيد الوجود عدمًا؛ ومن هنا يتم

[174] الروم: 19.

إخراج أولئك الموتى أحياء كلٌّ من رفاته، وما بقي يكون شاهدًا عليهم (حيًّا) من أثرٍ وعدمٍ، أي: ما بقي من أولئك الموتى حيًّا (دليلًا شاهدًا عليهم) إلَّا الأثر المتبقي عدمًا من رفاتِ عظمٍ.

من هذا المفهوم يُبيّن أنَّ الأثر عندما يصبح بين اليدين دليلًا يوصف بأنَّه دليلٌ حيٌّ؛ ولهذا فبقاء الأثر على قيد الوجود يعد الدليل الحي والشاهد على صاحبه الذي لم يعد على قيد الحياة وجودًا؛ ولذا من هنا يخرج الميت من الحي، أي: يخرج الأموات كلّهم أحياء من رفاتهم الذي بَلِيَ وأصبح عدمًا وأثرًا؛ قال تعالى: {قَالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ}[175].

إنَّ قوله: {مَنْ يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ} هو قول إثبات أنَّ تلك العظام التي أصبحت رميمًا هي العظام بلا حياة، ومع أنَّها الفاقدة لمعطيات الحياة، فإنَّ وجودها وإن كان أثرًا وعدمًا يعد شاهدًا حيًّا دالًّا على أثر الأموات.

أمَّا قوله: {قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ} فيفهم من هذا القول الكريم أمرين:

الأمر الأوَّل: أنَّ تلك العظام التي أصبحت عدمًا رميمًا قد سبق وأن أحييت من الموت من تلك النشأة الأولى.

[175] يس: 78، 79.

الأمر الثَّاني: أنَّ العظام الرميمة سيتم إحياؤها مرّة أخرى.

ولذا يفهم من الآيتين السّابقتين أنَّ الذي يحيي العظام وهي رميم هو الذي أحياها أوَّل مرّة، أي: الذي أحياها من الموتة الأولى، ومن ثمَّ يفهم أنَّ الإحياء ثانيّة لا يكون إلَّا لتلك العظام الرَّميمة؛ قال تعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}[176]. فقوله: {وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا}، أي: انظر إلى تلك العظام التي أمامك عدمًا لتنظر كيف يتم نشزها ونظمها على الصّورة لذلك الحمار هيكلًا عظميًّا قائمًا على الأرض بعد أن كانت عظامًا بالية ومبعثرَة فيها أو مقبورة، ثمّ انظر كيف تُكسى بأمرنا لحمًا؛ لتكون الصورة واضحة أمامك كيف تحيا العظام بأمرنا وهي رميم.

[176] البقرة: 258، 259.

وعليه: فإنَّ هذه الآيات الكريمات تبيّن لنا أنَّ الحياة الثَّانية لا تكون إلَّا من ذلك الرّميم الذي يبقى شاهدًا حيًّا على أولئك الأموات.

موتُ الموتِ

الموتُ واحدٌ والكل يعرفه يقينًا؛ مصداقًا لقوله تعالى: {خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ}[177]، وهذا يعني: أنَّ الموت والحياة كائنان مخلوقان وجودًا، ولكلٍّ منهما خصوصيّة بها يتميّز، ونحن بينهما نميّز مثلما نميّز بين الليل والنَّهار، وبين خلقنا من تراب وخلقنا من نطفة، وبين خلق السّماوات والأرض، وكذلك بين الموتة الصّغرى (نومًا) والحياة الصّغرى من بعده (يقظة)، ومع ذلك فإنَّ الموت موتتان؛ مصداقًا لقوله تعلى: {كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}[178].

يُفهم من قوله تعالى: {وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ} أنَّه لا إماتة قبل الموت الأوَّل، أي: لا وجود لأحياء سبق وأن ماتوا ثم أحيوا؛ ومن ثمَّ فهي تدلُّ على وجود الموت الذي أُحيي الأحياءُ منه؛ فقوله: {وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا} تعنى: كنتم أمواتًا دون أن تمروا بعمليّة الإماتة أو مرحلتها، وهي المرحلة التي تمت عمليَّة الإحياء منها؛ ولذا فهي تدل على الإحياء من الموت المخلوق خلقًا (الموت الذي خُلق مع خلق الحياة).

في هذه الآية الكريمة وفي هذه المرحلة وهي مرحلة الإحياء قال: {وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ}، ولم يقل: (أماتكم ثم أحياكم)، وهذا يعني: أنَّ

---

[177] الملك: 2.

[178] البقرة: 28.

الموتة الأولى لم تكن بفعل الإماتة كما هو حال الموتة الثَّانية، بل بفعل خَلق الموت الذي يحتوي في عناصر وجوده العناصر والصّفات القابلة للإحياء؛ ولذا فمع أنَّ الموت والحياة متزامنين خلقًا فإنَّ مرحلة الإحياء كانت ملاحقة لمرحلة الموت، وهذا يدل على أنَّ الموت الذي لم يكن سابقًا على الحياة، كان سابقًا على الإحياء الذي جاء منه.

ولسائل أن يسأل:

هل فعل الإحياء يستمد من الحياة، أم إنَّه يستمد من الموت الذي ارتبط به إحياء؟

أقول: الإحياء لا يستمد من الحياة ولا من الموت، بل الإحياء هو فعل المحيي وصفته جلَّ جلاله، وما الحياة والموت إلَّا المخلوقان بفعل الخالق الذي خلق ويخلق، وأحيا وأمات، ثم يحيي.

ومع أنَّ الموت والحياة زوجان مخلوقان معًا كما خُلق آدم وزوجه، فإنَّ الإحياء من الموت جاء لتبيان أنَّ خلقَ الموتِ سابقٌ على فعل الإحياء منه.

ولسائل أن يسأل:

من أين جاء مسمّى الحياة؟

الحياة انبعاث الرّوح الحي في الخلائق بعد خلقها على هيئات الحياة وصفاتها؛ ومن ثمَّ فلا يمكن أن يكون للإحياء مسمّى ما لم يكن

الموت مِن قبلُ سابق عليه {فَأَحْيَاكُمْ}، أمَّا الحياة والموت فهما توأم الوجود الأوَّل؛ ذلك لأنَّ الله خلق الاثنين معًا (الموت والحياة)؛ بسم الله: {خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ}[179].

ولسائلٍ أن يسألَ:

-مِن أين تأتي الحياة، أو يُبعثُ الموتى؟

أقول: الحياة مخلوقة خلقًا مثلها مثل الموت، غير أنَّ الإحياء بفعل المحيي وحده يأتي من الموت؛ ومن هنا علينا أن نفرّق بين مفهوم الحياة المخلوقة، والإحياء الذي لا يتحقّق فعلًا إلَّا من الموت {وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ} أي: كنتم لا تَعُدّون شيئًا فأصبحتم شيئًا يُعدُّ؛ ولهذا فالموت والحياة مصدران للإماتة والإحياء، وفي المقابل فإنَّ الإماتة والإحياء هما أفعال الفاعل لما يريده أن يكون متحقّقًا من الموت والحياة.

ولهذا فإنَّ الحياة لا تأتي من الموت، بل الأحياء وحدهم هم الذين يأتون أو يُخرجون من الموت ويبعثون إلى الحياة بفعل الفعَّال لما يريد (الخالق للموت والحياة).

والسُّؤال الافتراضي يقول:

. متى يُبعث الموتى؟ ومن أين يُبعثون؟

[179] الملك: 2.

إنَّ الإجابة عن: متى يبعثون؟ قال تعالى: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ}[180].

أمَّا الإجابة عن طرف السُّؤال: ومن أين يُبعثون؟ فالأموات إن كانوا بشرًا فلا يبعثون إلَّا من القبور، وكذلك هم من بعد العدم يبعثون؛ ومن هنا فعلينا أن نتوقّف قليلًا لنقول: إنَّ العدم لا يمكن أن يكون سابقًا على الشّيء، بل العدم لا يكون إلَّا من بعد الشيء لاحقًا عليه؛ أي: إنَّ الموتة الأولى لم تكن موتة العدم كما فسّرها البعض، بل هي موتة الخلق الأوَّل؛ كونه وجودًا للإحياء من دائرة الموت؛ الذي لا يستمد الأحياء إلَّا منه؛ ومن ثمَّ مَنْ لم يكن ميّتًا فلا يُحْيَا؛ ولذلك فإنَّ الذي يُحيي هو من يحيي من الموت، أو يخرج منه أو يعاد إليه كما يعود المستيقظ من نومه في أثناء (الموتة الصُّغرى)، أو عندما يأتي يوم البعث فتبعث الخلائق لتبقى على كفّتي العدل، ولكلٍّ موازينه جزاءً (ثوابًا أو عقابًا).

وعليه: فالموت إنهاء حياة ووجود عدم، أمَّا موت الموت؛ فهو إنهاؤها موتًا من الوجود الدنيوي؛ ولذا فالموت فعل تحقيق العدم وجودًا، أمَّا موت الموت فهو الذي يصبح من بعده مَن كان عدمًا على قيد الوجود حيًّا باقيًا.

---

[180] الأعراف: 187.

ومع أنَّ الإماتة تواجه الإحياء، فإنَّها لا تواجه الوجود؛ لأنَّ الموت جزء منه، وإلّا هل هناك من ينكر وجود الموت على قيد الحياة وجودًا؟

ولأنَّها الحياة الدّنيا؛ فهي: (حياة وموت)، وهذا يعني: (أنَّ نصف الوجود موت)، ولو كانت الحياة الدنيا طلبًا، فمن يطلبها؛ سواءً أكان يدري أم لا يدري؛ فهو يطلب الموت؛ حيث لا وجود حيًّا إلّا والموت يرافقه.

فالموت والحياة كفّتا الوجود، والوجود على مستوى الشيء واللاشيء يمكن أن يكون أحياء، ويمكن أن يكون معدومين؛ فوجود الأحياء وجود خلق، ووجود العدم وجود أثر بفعل الموت؛ ولذلك فالخَلق (كل الخَلق الترابي) جاء أثره وجودًا حيًّا من كلّ نوع، أمَّا العدم فكان أثره وجود الأموات من كلّ الأنواع.

وسيبقى الموت حيًّا ما بقيت الحياة، وسيبقى الأموات أثرًا ما بقي العدم، إلّا الموت عندما يموت لا يترك أثرًا؛ ذلك لأنَّ الموت لم يكن أثرًا إلّا على الأحياء؛ في حين أنّ العدم لا يكون أثرًا إلّا على الأموات؛ فكما أنَّ النّهاية مصير الحياة الدّنيا التي تشكّل 50% من الوجود؛ فكذلك النّهاية مصير الموت الذي يشكّل نصف الوجود الآخر.

فعندما تكون الحياة الدنيا تساوي 50% من الوجود، يكون الموت مساويًا 50% منه، وعندما يصبح العدم 100% وجودًا، تكون

الحياة مساوية صفرًا؛ وفي المقابل عندما تكون الحياة الآخرة 100% وجودًا يصبح العدم صفرًا؛ حيث لا موت.

وكما سبق أن أوضحنا فإنَّ الموت لا يخيف؛ حيث لا أحدَ يستطيع أن يفعل لك شيئًا أكثر ممّا يفعله الموت، وهو لا يُفعل إلّا مرّة واحدة، ولا يتكرّر، ولا مفرّ منه، وبموته تنبعث الحياة من جديد، وتبقى من بعده وجودًا ولا موت.

ولأنَّ الحياة الدنيا لا تساوي إلّا 50% من البقاء، في مقابل 50% من الموت، إذن: فالحياة الدنيا جاءت منقوصة: (فاقدة لمعطيات البقاء)؛ ولأنَّها المنقوصة فسميّت: (الدُّنيا) أي: الحياة السُّفلى: {وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى}[181].

ولذا القاعدة المنطقيَّة تقول:

-كل مخلوق فانٍ.

-الموت مخلوق.

إذن: الموت فانٍ

والتساؤل الافتراضي يقول:

[181] الأعلى: 17.

ولأنَّ حكم الموت هو القضاء على الأحياء؛ إذن: فمن الذي سيقضي على الموت؟

أقول: لا مخلوق إلّا ومن ورائه الخالق، والخالق هو الذي: {يُحْيِي وَيُمِيتُ}[182].

ولأنَّ الحياة مخلوقة والموت مخلوق، وأنَّ لكلِّ مخلوق بداية ونهاية، إذن: فلا مفرّ للموت من الموت: {كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ}[183].

وعليه: فالخَلق فعل تسبقه هيئة لصورة لم تكن؛ فأصبحت قابلة للمشاهدة والملاحظة، وهو وجود ما لم يكن موجودًا، سواء أكان كونًا بأسره، أم شيئًا منه: (حيّزًا، أم فراغًا، أم حيويَّة، أم مجراتٍ، أم طاقة، أم كواكب ونجومًا، أم إنَّه خَلق من هذه الأجزاء كما هو حال الأزواج التي منها آدم وزوجه).

ولأنَّ الخلق فعل الخالق؛ فهو المتحقّق على المشيئة دون رأي لمخلوق في خَلقه، وهنا تكمن الكينونة، التي وجُدت المخلوقات عليها هي كما هي، ومع أنّ الخَلق مؤسّس على فعل الكينونة (كُن)، ولكن للصّيرورة وجود أيضًا؛ فأبونا آدم وزوجه اللذان خُلقا بكينونة الإنبات من الأرض، خُلقا في أحسن تقويم، الذي فيه صَنعة الحُسن لا تتغيّر.

---

[182] البقرة: 258.

[183] الرحمن: 26، 27.

أمَّا الأخلاق والقيم والفضائل فتكتسب وتُعلّم وتتجسّد في القول والعمل والسّلوك، وقد لا تتجسّد، وهنا تكمن العلّة، التي تؤدّي بمن يتخلّى عن القيم الحميدة والفضائل الخيرة إلى الانحدار والدونيَّة، التي لا تليق بمن خُلق على الارتقاء قمّة.

ولذلك ظلّ آدم وزوجه على الرّفعة الخلقيّة حتى أقدما على عمل المعصية؛ فانحدرا هبوطًا مع الهابطين من تلك الجنّة على الأرض الدّنيا، التي جُرِّدت من الصّفات التي كانت عليها عُليا.

ومن هنا أصبح الصّعود للقمّة مطلبًا وأملًا لمن فقد تلك المكانة قمّة، وبقي الخَلق الحَسن على ما هو عليه حُسنًا، ولكن الأخلاق أصبحت على الاهتزاز تتبدّل من حَسنٍ إلى سيءٍ، وكذلك من سيءٍ إلى حَسنٍ: {فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ}[184]. فآدم وزوجه شاءا أن يؤمنا وأمل العودة إلى تلك الجنّة لم يفارقهما، ولكن بنيهما اختلفوا، بل تخالفوا على ما يؤدّي إلى الارتقاء، وما يؤدّي إلى الدُّونيَّة، حتى بلغ الاقتتال بينهم أشدّه. ومع ذلك فالإصلاح بين المختلفين والمتخالفين لم ينقطع، وكذلك العفو والصفح ظلّا جنبًا إلى جنبٍ مع القصاصِ الحقّ.

فبنو آدم بعد أن هدأت أنفسهم بالأنباء والرّسالات الخالدة بدأوا يتذكّرون ما يؤلم ويعملون على تفاديه اتعاظًا، ويتدبّرون أمورهم تحدّيًا للعوز والحاجة، ويفكّرون فيما يجب القيام به ارتقاء، ويسعون إليه عملًا؛

[184] الكهف: 29.

فنظروا إلى الخَلق وهم يتأمّلون فيه كيف خُلق: {أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ}[185]، حتى عرفوا أنَّ الخَلق لم يكن في دائرة الممكن المتوقَّع وغير المتوقَّع؛ فاستطاعوا أن يميّزوا بين الصّعب والمستحيل؛ فالصّعب قبلوا بتحدّيه ساعة بساعة، أمَّا المستحيل؛ فهو ما يحول بينهم وبين إمكانيَّة فعله، ولأنَّه كذلك فلا يُفعل إلّا فعلًا؛ إذ لا إمكانيَّة لعمله؛ فالعمل في دائرة الممكن يتطلّب جهدًا لينجز، أمَّا الفعل فلا يكون إلّا بالأمر النّافذ، والأمر النّافذ لا يكون إلّا من الفعّال له، ومن هنا يصبح المستحيل مستحيلًا.

إنَّ العلاقة بين الخَلق والمستحيل هي علاقة وجود الشيء من لاشيء، ثمّ وجود المستحيل خلقًا من الشيء المستحيل (خَلق الشيء من الشيء) كما هو خلق الأرض، وخلق الأزواج منها، ثمّ خلق التكاثر من التزاوج (شيء مستحيل من شيء مستحيل)؛ إذ لا إمكانيَّة لخلق ما يُخلق.

ولهذا فلا خَلق إلّا ومن ورائه خالق، والخالق لا يُمكنه أن يَخلقَ نفسه؛ فلو قبلنا بخلقه لنفسه؛ فلا استغراب أن يخلق غيره؛ فالكون الذي قال البعض عنه: إنَّه خَلق نفسه، ولا خالق من ورائه، فلو كان كذلك لكان على المقدرة التي تجعله يستطيع أن يخلق غيره.

[185] الغاشية: 17.

ومن ثمّ فالخالق يَخلق ولا يُخلق، ومن يُخْلَقُ، سيظل جاهلًا بقواعد الخلق التي خُلق عليها؛ ذلك لأنَّ قواعد خلق المخلوق تسبقه؛ فلو لم تكن ما كان، وهي التي لا تكون إلّا بيد الخالق؛ فالمخلوق بإمكانه أن يفكّر في نفسه وفي غيره، ولكن التفكير في النّفس والغير لا يزيد عن كونه تفكيرًا داخل دائرة الممكن، التي إن تمكّن منها الإنسان تمكّن من معرفة المستحيل إعجازًا؛ ومع ذلك فآفاق المعرفة مفتّحة: {أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ}[186]، أي: لا ينبغي أن يتوقّف التفكير الإنساني عند مشاهدة الإبل (الكائن المخلوق)، بل عليهم أن ينظروا إلى الكيفيَّة التي خُلقت عليها؛ فعليهم أن يفكّروا ويتأملوا حتى يبلغوا المستحيل؛ فبلوغ المستحيل ليس بمستحيل، بل المستحيل هو ما لا يتمكّن المخلوق من خلقه؛ ذلك لأنَّ المستحيل لا يُخلق إلّا فعلًا: (إذ لا جهد يبذل)، أمّا الممكن فيُخلق عملًا: (إذ الجهد يبذل).

فقوله تعالى: {أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ} قول استفهامي (الاستفهام في هذه الآية استفهام إنكاري، بمعنى: ما الذي يمنعكم من النظر في خلق الإبل؟)، أي: لِمَ لا تنظرون إلى الكيفيَّة التي خُلقت عليها الكائنات التي بين أيديكم؟ أي: انظروا حتى تروا المعجزات، واعملوا حتى تقفوا عاجزين، وحينها تتيقّنون بأنَّه لا إمكانيَّة أن يخلق المخلوق نفسه.

---

[186] الغاشية: 17.

ولذلك فأوّل ما يجب أن يفكّر فيه العاقل، هو: النّظر إلى الخَلق والتأمّل فيه بلا حدود، حتى يدرك الكيفيَّة التي عليها المخلوقات لتُستثمر بما يفيد ويمكّن من الارتقاء، ومع ذلك فمهما نظرنا إلى المخلوقات أو الكائنات الحيّة التي منها الإبل، ستظل الكيفيَّة التي خُلقت عليها علم غيب وبلوغه مستحيل، ولكن لأجل المعرفة ينبغي أن ننظر، وهو عمل العقل الذي لا ينبغي أن يقف عند حدود المشاهد، بل ينبغي أن يتجاوزه إلى معرفة الملاحظ والمجرّد (الكيفيَّة)؛ ولذلك فلا ينبغي أن يوضع سقف على العقل والتفكير الإنساني؛ فالله لو شاء للسقف أن يوضع لوضعه، ولكنّ الله جعل العقل الإنساني على التخيير؛ فلا إكراه، بل يجب أن يمكّن الإنسان من المعرفة الواسعة، ويترك له الاختيار، ومع ذلك، فإن اختار ما يسيء لخَلقه؛ فالعيب لا يلحق إلّا من لم يضع البيّنة بين يديه حُجّة.

ومع أنَّ معرفة الكيفيَّة الخَلقيّة أمر مستحيل، فإنَّ النّظر إليها بإعمال العقل يمكّن الإنسان من معرفة المزيد، الذي يحفّز على البحث بلا توقّف، ويدفع إلى الارتقاء تدبّرًا.

ولأنَّ النّظر إلى الكيفيَّة الخلقية يُمكّن من معرفة المستحيل؛ فكذلك النّظر إلى الكيفيَّة التي بها رُفعت السّماء يدفع إلى كلّ ما يمكّن من الارتقاء: {أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ

وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ}[187]؛ ولأنّ علاقة الوجود البشري مع الوجود الخلقي هي:

علاقة خَلق (مستحيل)، ونشوء (نمو)، وارتقاء (ممكن)، إذن: فالنّظر إلى الشيء ليس هو الغاية، بل الغاية أن يتدبّر الإنسان أمره عن معرفة وبيّنة؛ ولهذا وجب النّظر إلى الكيفيَّة التي بها رُفعت السّماء؛ فالنّظر إلى الكيفيَّة التي بها رُفعت يمكّن الإنسان من معرفة المزيد استكشافًا؛ فمعرفة الكيفيَّة متى ما ألمّ بها الإنسان تمكّن من الصّعود وبلوغ المزيد من الارتقاء؛ إذ لا موانع في دائرة الممكن أمام المقدرة، أي: بما أنَّ بني آدم يمتلكون المقدرة؛ فليرتقوا إلى السّماء بلا تردّد، ومتى ما عرفوا كيفيَّة الارتقاء عرفوا إمكانيَّة المزيد منه؛ حتى يبلغوا معطيات ذلك الانفتاق العظيم، ومعطيات كيفيَّة رتقه من جديد. وحينها سيكتشفون ما لم يسبق لهم اكتشافه؛ فلينظروا إلى السّماء، ثمّ ينظروا إلى الكيفيَّة التي بها خُلقت وارتقت إلى هناك بعيدًا عن الأرض التي فتقت منها؛ فالنّظر إلى الكيفيَّة التي بها رُفعت السّماء يُمكّن من معرفة الكيفيَّة التي بها فُتقت السّماوات والأراضين أكوانًا، والتي عندما يتمّ التعرّف عليها يصبح الارتقاء قمّة متجاوزًا لإحداث النُّقلة المأمولة.

ومن ثمّ فلا داعي للتأخّر، بل ينبغي الإسراع بلا تسرّع، والنّظر في الكيفيَّة التي رَفعت السّماء الدّنيا عن الأرض الدّنيا، كما رفعت بقيَّة

[187] الغاشية: 17 . 20.

السّماوات والأراضين طباقًا؛ فلا ينبغي أن يغفل الإنسان عن معرفة الكيفيَّة التي عليها الخَلق: {أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ}، ولا يغفل عن النّظر إلى الكيفيَّة التي بها تمّ الارتفاع: {وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ}، أي: لا ينبغي أن يغفل عمّا يمكّنه من الارتفاع عن كلّ دونيَّة؛ لأنَّ التفكير فيما يؤدّي إلى الارتفاع يمكّن من معرفة ما يفيد وينفع ارتقاء.

إنَّ النّظر إلى الكيفيَّة التي رَفعت السّماء يُمكّن من معرفة الكيفيَّة التي بها يتمّ تجاوز الجاذبيَّات؛ جاذبيَّة بعد جاذبيَّة؛ فهي لم تكن شيئًا مستحيلًا، حتى وإن كانت على الصّعوبة؛ ولذلك فالنّظر إلى الكيفيَّة يُمكّن من تحدّي الصّعاب التي جاء خلقها نعمة للعقل البشري؛ أي: لو لم تكن الصّعوبات لكان مستوى العقل الآدمي مستوًى حيوانيٍّ، لا يفكّر إلّا فيما يشبع نهمه، بمعنى: لو لم تكن الصّعاب ما كان التذكّر واعظًا، ولا التدبّر موقظًا، ولا التفكّر مرشدًا.

ولأنَّ العقل الإنساني يمكّن من الفُسحة في كيفيَّة الخَلق والنّشوء والارتقاء؛ فهو الممكّن من معرفة ما يؤسّس للعمل أو ينشئه عملًا، ولكن يظل عقل الإنسان في حاجة لما ينبهه ويستفزّه تذكّرًا وتدبّرًا وتفكّرًا؛ ولهذا جاء الخَلق مشاهدًا وملاحظًا حتى يُرى ويُنظر إليه دون التوقّف عنده وكأنَّه النّهاية، بل وجوده مشاهدٌ وملاحظٌ جاء محفّزًا على ما يمكّن من تجاوزه بناءً وإعمارًا؛ ولهذا فالنّظر إلى كيفيَّة خلق الإبل يمكّن من معرفة المستحيل الذي لا يكون إلّا بفعل الخالق، والنّظر إلى كيفيَّة رفع السّماء

يمكّن من معرفة قدرة الخالق، وما فسحه من آفاقٍ أمام العقل البشري إن أراد معرفة واعية وارتقاءً بغاية نيل المأمول جنّة، وهنا تكمن العلاقة بين الممكن الصّعب والمستحيل؛ فالمستحيل: (مالم يتمّ بلوغه) على الرَّغم من فسح كلّ شيء أمام العقل البشري، أمّا الصّعب؛ فهو الممكن على الرَّغم من صعوبته المحفّزة على قبول التحدّي؛ ولذلك فالنّظر إلى السّماء كيف رُفعت نظر إلى (مستحيل وممكن في وقت واحد)؛ ولهذا بدأ الإنسان مؤخّرًا بغزو الفضاء، وهو يعلم أنَّ أمامه المزيد ممّا هو أعظم ارتقاء ومعرفة ودراية.

أمَّا النّظر إلى كيف نُصبت الجبال: {وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ} فيُمكّن من معرفة ما يرشد إلى البناء والإعمال، أي: يُمكّن من علم الهندسة في التصميم والعمران؛ فقوله: {وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ} هو قول يُمكِّن من التدبّر، أي: وكأنَّه يقول: عليكم بمعرفة الكيفيَّة التي عليها أنشأت الجبال؛ فأنشئوا ما شئتم من بيوت، وصمّموا ما تشاؤون؛ فالنّشوء في دائرة الممكن وإن كان صعبًا؛ فهو ليس بمستحيل؛ فانظروا إلى الجبال، واجعلوا جبالًا من الأبراج إن استطعتم. وفوق ذلك لا ينبغي الإغفال عن العلاقة وكيفيّتها بين رفع السّماء ونصب الجبال، أي: لا ينبغي التوقّف عند رؤية الجبال، ولا السّماء، بل يجب التفكّر فيهما، وكيف خُلقت ورُفعت ونُصبت؟ ثمّ التفكير في الكيفيَّة التي بها سُطحت الأرض: {وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ}؛ حتى تعرفوا كيف تعمّروها وتستخلفوا فيها

علمًا وحضارةً وارتقاءً، وكيف تنشئون فيها حياة تمهّد لعلاقات إنسانيَّة مؤسّسة على فضائل وقيم وعمل منتج يمكّن من إحداث النُّقلة، ويجعلكم من الوارثين في الدارين.

إنَّ النّظر في أيّة كيفيَّة هو نظر تفحّص من أجل التبيّن الذي به تتمّ المعرفة الواعية بما هو كائن وما يجب أن يكون، ممّا يستدعي ملكات العقل إلى التفكير الممكّن من صياغة فروض أو تساؤلات تمكّن من معرفة الجديد وإنتاج ما هو أجد؛ ولذلك فمعرفة كيف سُطِحت الأرض معرفة علم وتخطيط واقتصاد وبناء وإعمار وإنتاج، ومنافسة لا تغفل عن أهميَّة القيم في تحقيق كرامة الإنسان.

فمتى ما عرف الإنسان الكيفيَّة التي بها سُطِحت الأرض، عرف الكيفيَّة التي بها يتمكّن من العمل، الذي لا مستحيل أمامه سوى المستحيل، الذي بمعرفته يرتقي الإنسان إلى معرفة الخالق إعجازًا؛ إذ لا خَلق إلّا بفعل الخالق.

ولأنَّ الخَلق يُفعل؛ فهو الذي يُفعل بغير جهدٍ؛ ولذلك فالخالق يفعل ما يشاء كيفما يشاء أمرًا، أمّا المفعول فهو الذي لا رأي له حتى في وجوده؛ ولذلك فلا وجود لشيء إلا بفعل ليس بيده.

ولأنَّ لكلّ شيء صفة؛ فصفة الخَالق لا يمكن أن تكون صفة المخلوق؛ ولهذا فلا يمكن أن يكون المخلوق خَالقًا؛ لأنَّ الخَلق ليس من

صفاته، والخالق لا يُخلق؛ لأنّ صفة الخَلق لا تكون إلّا بأمره، ومن يرى غير ذلك اجتهادًا؛ فَلِمَ لم يكن خالقًا لنفسه؟ ولِمَ لا يخلق غيره؟

ولأنَّ لكلّ مخلوق صفة خُلق عليها، وتميّز بها؛ فلا شكّ أنَّه سيظل عليها متميّزًا عن غيره كما غيره يتميّز عنه صفة وخاصيّة؛ ولهذا سيظل للكون الدّنيويّ صفة تختلف عن صفات الأكوان الأخرى التي تعلوه طباقًا، بمعنى: سيظل كوننا على صفته وإن حدثت فيه تغيّرات أنقصت من حجم ظلمته أم زادتها اتساعًا، أو أنقصت من عدد مجراته أم زادتها عددًا، وهكذا يمكن أن يصبح الفراغ بين تمدّد وانكماش ولكلّ وظيفته وجودًا.

ولأنَّ لكلّ مخلوق هيئة، ولا هيئة للخالق؛ فكان الكون على هيئته يتمدّد متسارعًا، حتى يُرسم شكله وفقًا لما هُيأ عليه كونًا، أي: لو بلغ الكون حدود وجوده كونًا، لرُسِم له الشكل الذي لا يكون إلّا على هيئته؛ ولهذا فهيئة الخلق علم الخالق، أمّا هيئة ما يره المخلوق؛ فهي في ذِهنه هيئة، وستظل هيئة حتى تأخذ شكلًا أو صورة بها تُدرك مِن قِبل الغير.

والخالق لا يمكن أن يخلق من عدم؛ فالعدم لا يكون إلّا وجودًا حتى وإن كان رفاتًا، فالمعدوم مفعول، والمفعول يفعله الفاعل؛ ولذلك فالمعدوم هو: من لم يكن على قيد الحياة وجودًا، ولكنّه على قيد الوجود

عدمًا. وهذا يدلّ على وجوده السَّابق قبل أن يصبح عدمًا بفعل الموت الذي لاحقه حتى النّهاية.

ومن هنا لا يمكن أن يكون الخَلق الأوَّل من عدمٍ، بل الخَلق من لا شيء يذكر، أي: وجود ما لم يكن موجودًا، سواء أكان مادّة أم ليس بمادّة؛ ولهذا فالخَلق كيفيَّة تظهر الهيئة في صورةٍ أو شكلٍ؛ فتلفت المخلوق العاقل لنفسه ثمّ لغيره؛ ليأخذ بأسرار الخَلق في صناعة ما يمكن أن ييسّر له الحياة ارتقاء.

وبالنّظر لخلق الكون وفقًا لِما تمّ اكتشافه وتيسّر للمعرفة؛ فهو المخلوق الذي لا سيطرة له على نفسه؛ فهو كون متمدّد في تسارعه؛ من أجل بلوغ النّهاية التي لم تكن من مكوّنات وجوده، فالكون لو كان خالقًا لنفسه ما كان يتمدّد متسارعًا تجاه نهايته.

إنَّ الكون الذي نحن فيه خُلق مع غيره من الخلائق؛ ولذا فلو كان خالقًا لما كانت له البداية تمدّدًا والنّهاية انكماشًا، أو فتقًا ورتقًا، أو كما يقولون: انفجارًا وتجمّدًا، وحتى إن اختلفت الرؤى؛ فقد اتفق أصحابها –من مفكّرين ومفسّرين وعلماء فيزياء وفلك–على أنَّ للكون بداية ونهاية؛ ولهذا نقول: خالق البداية والنّهاية سابق على خلقهما، وعلى ما بينهما من خلقٍ؛ ومن هنا فلا يمكن للكون أن يكون خالقًا، وهذا بالتّمام حال الكون الذي لو لم يكن من ورائه خالق ما كان بين البداية تمدّدًا والنّهاية انكماشًا.

ولأنَّ الكون لم يكن خالقًا لنفسه؛ فهو على علاقة بأكوان أخرى، أي: لو كان خالقًا لنفسه ما وجدت أكوان إلى جانبه، وهي التي فُتقت منه وفُتق منها، أكوان تعدّدت والخالق واحد لا يتعدّد، إنَّه الواحد الذي يُعد ولا يتعدّد؛ ذلك لأنَّ الواحد (الخالق) لا سابق عليه، أمّا الواحد المتعدّد؛ فلا يكون إلّا والصّفر نقطة شروعه ارتقاء، أو لحظة فنائه انحدارًا (بداية ونهاية)؛ ولذلك فلحظة الصّفر قبل كوننا كانت الرتق، ومن بعده ستكون لحظة الصّفر رتقًا من جديد، ممّا يجعل لحظة الفتق بداية وجود متمدّد، ولحظة الرّتق وجودًا منكمشًا.

ومن هنا يتّضح جمال كوننا تمدّدًا وانكماشًا؛ فكلّ شيء فيه نراه كمالًا نراه بعد نظرة لا يزيد عن كونه نقصًا؛ ذلك لأنّ النّظر في الكيفيَّة يختلف عن النّظر إلى الشّكل والصّورة؛ فمهما عظم شكل الكون أو صورته؛ فلا يؤتمن جانبه؛ فهو المملوء براكين وصواعق وزلازل وشهبًا ومجرات ونارًا وظلمة وماء وسماء، إلى جانب شياطين الإنس والجنّ، مع وافر القلق والألم والوجع والخوف، ثمّ الموت.

ولهذا فالحياة فيه يملؤها الرّعب والظّلم والعدوان، والسّلب والنّهب، والتّعب والملل واليأس، ومع ذلك فهو المهدّد بالزّوال الذي لا يكون إلّا فجأة: {حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً}[188]؛ ولأنَّه كذلك فلا كمال فيه؛ ولهذا مهما تحقّقت فيه من آمال فستكون منكسرة ما لم ترتقِ بأصحابها

[188] الأنعام: 31.

إلى رتق السّماوات والأرض؛ لتكون الحياة عيشًا رَغِدًا مع وافر النّعم المشبعة لكلّ الحاجات المتنوّعة.

ولذلك فالحياة الدّنيا مع أنَّها مملوءة بثروات ونعم، فإنَّها لا تكون ارتقاء إلّا بالعمل؛ ولهذا بُعثَ الأنبياء والرُّسُل جميعهم من أجل العمل الصّالح: {وَقُلِ اعْمَلُوا}[189]، ومع ذلك؛ فالحياة الدّنيا بداية ونهاية، هي حياة ألم: (ألم الولادة وألم الموت). وسيظل الألم مستمرًّا ومتسارعًا مع استمرار تمدّد الكون وتسارعه، ولن يتوقّف ما لم يتوقّف تمدّد الكون المتسارع.

ولذلك سيظل الكون متمدّدًا حتى النّهاية التي يقف عندها الألم صفرًا، وهي لا تكون إلّا بعلّة أو سبب، ولأنَّها لا تكون إلّا بهما؛ فهي متى ما حدثت وفّرت لنا حُكمًا بأنَّ الكون لم يَخلق نفسه، بل خلقه الذي جعل له بداية صفريّة ونهاية صفريّة، وهي التي من بعدها ينكمش بملامسة ما يُعيده لرشده من حيث انفتق وتمدّد.

ولأنَّ الكون لا يتوقّف أو ينكمش عن تمدّده إلّا بعد بلوغه نقطة الصّفر التي متى ما استشعرها أو لامسها انكمش حتمًا، إذن: فليس له بدّ إلّا التوقّف أو الانكماش إلى حيث نقطة البداية التي تعيده إلى الاستقرار بلا مخاوف؛ ومن ثمّ عندما يبدأ انكماش الكون فانكماشه سيزيح فراغًا من خلفه، وفي المقابل سيترك فراغًا من أمامه، ممّا يجعل ذات

[189] التوبة: 105.

الحركة مؤثرة على بقيّة الأكوان انكماشًا، حتى تعود إلى نقاط رتقها التي انفتقت منها أكوانًا، والتي من بعدها سيصبح الكون المرتق كونًا عظيمًا: {يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ}[190].

ولأنَّ الوجود لم يُخلق كلّه من لا شيء كما هو خَلق هيئة الكون؛ فهناك على الكثرة أشياء خُلقت نشوءًا من الكون؛ كما هو نشوء الأرض مرتقة جنّة، ونشوء آدم وزوجه منها نباتًا: {وَاللَّهُ أَنْبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا}[191]، ثمّ نشوء التكاثر تزاوجًا، وكلّ هذه المخلوقات سواء أكانت من لا شيء أم من شيء قد أوجدت ثلاث دعائم تمكّن من معرفة الكيفيَّة التي كان عليها المستحيل خَلقًا: (خلق الوجود من لا وجود)، والتي كان عليها الإعجاز نشوءًا (خلق الشيء من الشيء)، والتي يكون عليها الممكن ارتقاء: (بين كينونة وصيرورة)، فهذه الدّعائم تُمكّن من ربط العلاقة بين الخالق والمخلوق بما هو: (مستحيل ومعجز وممكن).

ولأنَّ المستحيل هو خَلق بلا سابق: (وجود لم يسبقه وجود)؛ فينبغي النّظر إليه حتى بلوغه مستحيلًا، وكذلك المعجز وهو خلق الشيء من الشيء ينبغي النّظر إليه حتى بلوغه شيئًا معجزًا، أمَّا الممكن فهو مَكمن الخوارق؛ فمن بلغه عن غير توقّع بلغ المعجز إعجازًا، ومن بقي

---

[190] الأنبياء: 104.

[191] نوح: 17.

في دائرة المتوقَّع؛ فلا إمكانيَّة لبلوغ الخوارق التي في النّهاية لا تكون إلّا في دائرة الممكن.

الموت موتتان

الموتة الأولى: وهي الموتة التي أخذت الحياة صفتها منها؛ إذ لا صفة لمن يخرج من الموت إلَّا صفة الحياة؛ إنَّه الموت الأوَّل الذي لا ثواب فيه ولا عقاب ومثله كنبات الأرض بعد إحيائها بالماء المنزَّل: {وَلَئِنْ سَأَلْتَهُم مَّنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ}[192].

هذه الآية الكريمة تقرّبنا معرفةً مِن معرفةِ مفهوم الموت والحياة الأوَّلين؛ فالموت الأوَّل لا يزيد عن كونه الوجود الكوني مادّة خَلقيّة، وهو الذي تُستمد منه المادَّة الطِينية للمخلوقات الترابيّة كما هو حال آدم وزوجه اللذين نبتا من الأرض نباتًا؛ مصداقًا لقوله تعالى: {وَاللَّهُ أَنْبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا}[193]؛ فقوله: {وَاللَّهُ أَنْبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا} يشير إلى الخروج من الموت إلى ميادين الحياة، وهذه الموتة الأولى والحياة الأولى للخلق الآدمي، أمَّا الموتَة الثَّانية فهي العود إلى ذات الأرض موتى، وفي المقابل فإنَّ الحياة الباقية هي الحياة التي لا موت من بعدها؛ مصداقًا لقوله تعالى: {ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ

---

[192] العنكبوت: 63.

[193] نوح: 17، 18.

إِخْرَاجًا}، أي: يعيدكم فيها موتى، ويخرجكم منها أحياء (بعثًا سرمديًّا)؛ إذ لا موت من بعده.

إذن: **فَمَنِ الذي يتم إحياؤه؟**

الذي يُحيا هو الميِّتُ دون غيره.

وما الفرق بين الحياة والموت؟

الحياة حيويّة مملوءة حركةً وسكونًا وتغيُّرًا؛ إذ لا ثبات إلَّا للصّفات الخلقيَّة نوعًا؛ مما يجعل القرد قردًا وإن تغيّرت أحواله، ويجعل الإنسان إنسانًا وإن تغيّرت أحواله وتطوّر، وهكذا ستكون بقيت الخلائق تتغيّر أحوالها من بيئة إلى بيئة دون أن تتغيّر صفاتها التي خُلقت عليها أنواعًا: طيورًا، أو أسماكًا، أو نباتًا أو غيرها.

وفي المقابل لا يكون الموت إلَّا صفة للموتى؛ إذ لا حيويّة فيه ولا حركة وإن تغيّرت أحوال الموتى كما تتغيَّر حالة الحطب بعد حرقه إلى رمادٍ ما يجعله لا يزيد عن كونه أثرًا؛ وكذلك كما هو حال الكائنات بعد موتها، وهي التي لن تكون لها صفة إلَّا أثرًا باليًا، ومع أنَّه أثرٌ بالٍ فهو يدلّ على من كانت له صفة؛ فالرَّماد يدل على الجمر، والجمر يدلُّ على الحطب، والحطب يدل على الشَّجر، وهكذا تدلّ العظام على المخلوقات التي كانت لها صفات عليها؛ فعظام الإنسان لا تزيد عن كونها عدمًا وأثرًا، ولا تدلّ إلَّا على ذلك الإنسان الذي كان حيًّا، وكذلك عظام

الطيور وبقيّة المخلوقات، وحتى التي لا نرى لها أثرًا بعد موتها فإنَّ أثرها لن يخرج عن أثر الموت الأوَّل، بل حتى أصواتنا التي نطقناها والتي سننطقها كلمات أو صرخات أو آهات أثبت البحث العلمي أنَّها وإن اختفت عن أسماعنا فهي محفوظة في الكون الذي نحن فيه ولن تختفي.

ولو افترض من يفترض أنَّ الإماتة كانت سابقة على الإحياء فكيف يمكن أن يكون الوجودُ؟

أقول: لو كانت عمليَّة الإحياء هي الأولى؛ لكان الموت وحده سَرمديًّا (باقيًا) بقاء على حساب وجود الحياة الدَّائمة، ومن ثمَّ فلن يكون هناك ضرورة للبعث والعود الذي لا بدّ وأن يعاد الخَلق إليه {ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}؛ ولأنَّه لا بدّ من الرجوع إليه؛ إذن: لا يمكن إلَّا أن يكون الموت وجودًا لمادة الإحياء، ومن ثمَّ تظل الحياة تلاحقه حتى تقضي عليه موتًا (موت الموت)؛ ولذا فالموت يُفنى والحياة تبقى: {يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ}[194].

الموتةُ الثَّانيةُ:

لو لم تكن عناصر الموت مِن اللاشيءِ مخلوقًا أوَّلَ؛ لما كانت الحياة الأولى شيئًا مخلوقًا منه؛ ولأنَّه لا مخلوق على الأرض الدُّنيا إلَّا وقد خُلق من عناصر الموت إحياءً؛ لذا فإنَّ عناصر الموت لا تصمد كما تصمد عناصر الحياة، أي: كل ما أحيي من عناصر الموت خلقًا فلا بدَّ وأن

[194] غافر: 16.

يموت؛ ولهذا فعمر الخلائق على الأرض الدّنيا لا يزيد عن كونه عمرًا مؤقَّتًا؛ ولذلك فلكلٍّ عمره بداية ونهاية؛ ومن هنا تأتي الموتة الثَّانية نهاية لكل الأعمار.

الوجودُ عدمًا

بعد أن عرفنا الوجود موتًا، والوجود حياةً، الآن بين أيدينا مفهوم العدم وجودًا، وهو المرحلة التَّالية لمرحلة الحياة الدُّنيا، التي لا تلحق إلَّا الأموات، وهي المرحلة التي يصبح فيها الأموات أثرًا وعدمًا يكاد ألَّا يكون موجودًا بأسباب التآكل وعوامل التعرية وأثر المتغيّرات البيئية والمناخية؛ ومن هنا فالعدم فعل يلحق من يفقد الحياة ليحوّله من تلك الصفة الخاصّة به هيئة وصورة إلى وجودٍ بلا هيئة ولا صورة سوى عظام تزداد بيادًا بمرور الزّمن، ولا يبقى منها إلَّا الأثر معدومًا.

وعليه: يفهم من كلمة العدم صفة من لا صفةَ له؛ ذلك لأنَّه الصّفة لمن بقي أثرًا معدومًا؛ ولهذا فصفة المعدوم لا تلحق إلَّا من كان على قيد الحياة وجودًا، ثمّ صار بعد ذلك من تعداد الأموات عدمًا مفقودًا، أي: لو لم يكن المعدوم مِن قَبلُ موجودًا على قيد الحياة ما كان له أثر؛ ولذا فلا نهوض من العدم إلَّا من بعد بعث من الموت، أمَّا مرحلة ما قبل الخَلق فهي مرحلة اللاشيء خلقًا سِوى خلق الموت والحياة وجودًا؛ قال تعالى: {هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا}[195].

[195] الإنسان: 1.

إذن: فالعدم لا يكون إلَّا أثرًا لوجود شيء سابق عليه، وليس الوجود في ذاته، سواء أكان ذلك الأثر يدلُّ على أثر الأحياء، أم إنَّه يدلّ على أثر الأموات والأشياء المنتهية.

والعدم لم يكن الموت، ولا الحياة، ولم يكن النّهاية، ولم يكن اللاشيء؛ فالموت فعل بيد الخالق المميت، والحياة فعل بيد الخالق المحيي، والنّهاية مع أنَّها توقف الفعل أو المقدرة فإنَّها لا توقف الحياة، أمَّا اللاشيء فهو المتناهي في الصّغر ولا يرى بالعين المجردة إلَّا ظلمة.

ومن هنا فبصمات الأحياء وصورهم وعيّنات دمائهم لا تزيد عن كونها أثرًا (عدمًا) يدلّ على شيء، وليس الشيء في ذاته؛ وكذلك الرّفات البالي لأيِّ شيء هو أثر (عدم) لشيءٍ كان موجودًا على قيد الحياة.

والعدم لم يكن مصدر خلق الأحياء كما يراه البعض، بل هو ما يؤول إليه مصيرهم، وهو الفعل المتحقّق أثرًا؛ فالعدم لم يكن فعل الموت، ولا فعل الإنهاء، ولا يكون الوجود منه، بل على العكس من ذلك لا يكون العدم إلّا من وجودٍ. فلو لم يكن الوجود ما كان العدم؛ ولذلك فالعدم هو الفعل المترتّب على الوجود الذي لا بدّ من نهايته أو موته ليكون من بعده عدمًا.

ولأنَّ لكلّ بداية نهاية؛ فالوجود ليس له بدّ إلّا النّهاية، وبعد النّهاية يصبح الزّمن كفيلًا بجعله عدمًا، وإلّا هل هناك من باقٍ غير الباقي الذي يجعل من الوجود عدمًا؟!

ولأنَّ العدم يستظلّ بظلّ الوجود، فهو يلاحق الموجودات تحت ظلّه لحظة انتهائها من المشاهدة المباشرة وفقًا للهيئة والصّفة؛ ومع ذلك فالوجود هو القاعدة، والعدم هو الاستثناء: {قَالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ}[196]؛ فتلك العظام التي كانت وجودًا على قيد الحياة، أصبحت رميمًا باليًا لا علاقة له بالحياة حتى البعث.

فالوجود كونه قاعدة؛ لأنَّ صفته البقاء، والعدم كونه استثناء؛ لأنَّ صفته الانتهاء، وهكذا هي صفة الموت الإنهاء وصفة الحياة الإبقاء: {وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ}[197].

ومع أنَّ الوجود الأوّل خُلق من لا شيء بفعل الخالق، فإنَّ المخلوقات من بعده خُلقت من أشياء كما هو حال الإنسان وغيره من المخلوقات: {سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ}[198]، ثمّ كثير من الوجود خُلق تكاثرًا: {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ}[199].

---

[196] يس: 78، 79.

[197] العنكبوت: 64.

[198] يس: 36.

[199] الروم: 20.

وعليه: فلا (حياة) إلّا عن خَلق، ولا (إحياء) إلّا من موت أو عدم: {وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ}[200]؛ ولذلك فالوجود سابق على العدم، والحياة سابقة على الإحياء؛ ومن هنا فلو سألت من سألت:

–من أين يأتي الوجود؟

ليقولنَّ: من الواجد.

أمَّا السُّؤال: من أين يخرج الأحياء؟

فلا يخرجون إلَّا من وجود سابق عليهم.

وفي المقابل:

من أين يخرج الموتى؟

يخرجون من الشّيء الذي لا تستمدّ الحياة إلَّا منه، أو الشّيء الذي تُبعث فيه الحياة انبعاثًا وهو (العدم)؛ قال تعالى: {فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا}[201].

---

[200] الروم: 27.

[201] البقرة: 259.

ولذا فالأحياءُ يخرجون أوَّلًا من الذي لا تستمدّ الحياة إلَّا منه؛ مصداقًا لقوله تعالى: {وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ}[202]، أمَّا ثانيًا: فيخرجون ممن تُبعث الحياة فيه بعثًا من بعد إماتة؛ مصداقًا لقوله: {ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ}[203].

ومع أنَّ مفهوم العدم يختلف عن مفهوم الوجود، فإنَّ هناك علاقة وثيقة بينهما؛ فالعدم الذي يلاحق الوجود الحي ليجعله رميمًا باليًا، لا بدّ أن يكون فعله على قيد الحياة وجودًا، وإلّا كيف له بجعله عدمًا؟ ولأنَّ العدم على قيد الحياة وجود، فلا يمكن أن يكون نقيضًا للوجود بأسره؛ ولذلك فالوجود مفهوم مطلق يحتوي كلّ شيء على قيد الحياة، بما فيها العدم؛ ومن هنا فالعدم ليس نقيض الوجود، بل هو جزء منه.

ولأنَّ للعدم أثرًا، إذن: فهو موجود، وإلّا هل هناك من يرى أنَّ وجود الأثر لا يدلُّ على وجود من تركه أثرًا؟

ولأنَّ العدم موجود؛ فلا يمكن أن يكون ذا مفهوم مضادٍّ لما هو عليه (الوجود)؛ ولتبيان ذلك، أتساءل:

–ما هو دليل إثبات الوجود؟

ما هو دليل إثبات العدم؟

---

[202] الحج: 66.

[203] الحج: 66.

الوجود والعدم لا مادّة حيث لا يشاهدان؛ ولأنَّهما كذلك فهل يظنّ البعض أنَّهما غير موجودين؟ ولكن إن اعترفنا بوجودهما؛ فماذا يعني؟ وإن اعترفنا بوجود أحدهما، وليكن الوجود، فأين الآخر (العدم)؟ أي: هل انتهى العدم من الوجود، ولن نخشاه بعد اليوم أبدًا؟ أم أنَّه باقٍ يلاحق الأحياء أينما حلّوا في الدّار الدّنيا؟

أقول: كيف نقبل بأنَّ للحياة الدّنيا ركائز رئيسة وعلى رأسها الوجود والعدم، ثمّ نأتي لنقول: العدم عكس الوجود؟

فإن قبلنا بذلك؛ فإنّنا كمن يقول: لا وجود (لا حياة) وكأنَّه أينما وُجد وجود عُدِم.

ولأنَّ لكلٍّ من الوجود والعدم أثره، إذن: فكلاهما موجود؛ فكما خَلق الخالق الوجود خلق العدم، ولكلّ فعله، وبما أنَّهما مخلوقان، إذن: فهما الموجودان الباقيان ما بقيت الحياة الدنيا.

وماذا يعني: أنَّهما الموجودان الباقيان ما بقيت الحياة على الأرض الدنيا؟

يعني: أنَّ وجودهما في الحياة الدّنيا مؤقّت؛ لأنَّ الحياة برمّتها زائلة: {وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ}[204]. ولأنَّها الزائلة وهما جزء منها؛ إذن لا شكّ أنَّهما الزائلان.

[204] الرّعد: 26.

ولأنَّ لكلّ منهما أثره على قيد الحياة؛ حيث أثر الوجود البقاء: (بقاء المخلوقات)، وأثر العدم الفناء: (رفات الفانيات). إذن لا شكّ أنَّ لكلّ منهما وجودًا.

وقد يتساءل البعض:

ألا يعني ذلك كمن يقول: العدم أصبح وجودًا؟

لا شكّ أنَّ العدم وجود دالّ على وجود الفانيات، ولكنَّه لم يكن الوجود بأسره، بل هو جزء منه؛ ولذلك فالوجود عكسه الفناء وليس العدم. أي: إنَّ أثر الوجود بأسره هو الخلائق، أمَّا العدم فهو أثر رفات تلك الخلائق وما تتركه من بصمة.

ولأنَّ العدم لو لم يكن موجودًا ما ترك أثرًا، إذن: فالقاعدة المنطقيَّة:

-كلّ أثر موجود.

-العدم أثر.

إذن: العدم موجود.

ولكن ماذا يعني: أنَّه موجود؟

يعني: أنَّ العدم فعل من أفعال الوجود؛ فلو لم يكن الوجود ما كان العدم؛ ولذلك فالعدم مرتبط بالوجود ولا ينفصل عنه؛ إذ حيثما حلّ

الوجود حلّ، أي: لو لم يكن الوجود، هل يمكن أن يكون العدم؟ ولهذا فالعدم وجود، ولكنّه لم يكن الوجود.

فالعدم مع أنَّ وجوده متحقّق في الحياة الدّنيا، فإنَّه لن يكون كذلك في الحياة الباقية؛ ممّا يجعل بقاء الوجود في تلك الحياة بلا عدم.

ولأنَّ الحياة الدّنيا مؤسّسة على البداية والنّهاية؛ فهي زائلة، ولأنَّها زائلة؛ فلا وجود ولا عدم.

وعليه:

فالوجود والعدم حقيقة ولا فارق فيها، فحيثما حلّ الوجود الدنيوي حلّ العدم، وكذلك حينما ينتهي الوجود الدّنيوي ينتهي العدم، وفقًا للقاعدة العلميَّة: (لكل بداية نهاية).

ولذا فلو لم يكن للعدم وجود ما كان للحياة نهاية، وبما أنَّ العدم موجود وله نهاية، إذن: لا يمكن أن يكون هو النّهاية، بل النّهاية عدم العدم، الذي من بعده تستمرّ الحياة.

ولذلك فالوجود لم يُخلق من العدم، وكذلك العدم لم يُخلق من الوجود، ولكن كليهما مخلوقٌ لأداء مهمّة الحياة المؤسّسة على البقاء الفاني. ولو لم يكن الوجود ما كان للعدم شأن، ولو لم يكن العدم ما كان للوجود شأن؛ ومن ثمّ فحيثما كان الوجود بالقوَّة، كان العدم بالضّرورة.

فالوجود والعدم خُلقا على القوّة، ولم يكونا موضع اختيار؛ فمتى ما حان وقت الخلق يصبح المخلوق وجودًا، ومتى ما وجب وقت انعدامه؛ فلا يكون إلّا عدمًا.

ولأنَّ الوجود عن غير طلب ولا رغبة؛ فكذلك العدم يتحقّق بالقوّة عن غير طلب ولا رغبة؛ ولذلك فالقاعدة:

-كلّ وجود يلازمه عدم.

-الكون وجود.

إذن: الكون يلازمه عدم.

ولهذا فالحياة الدّنيا ليست وجودًا مجرّدًا، بل وجودًا وعدمًا؛ ومن هنا فهي المؤسّسة على الفناء.

ولأنَّنا نعلم ذلك؛ فعلينا أن نفكّر في كلّ شيء أكثر من مرّة، قبل أن نقدم على فعل شيء، ولأنّنا مخلوقون فعلينا أن نفكّر وجودًا وعدمًا، ولا نبقى على غير صفاتنا التي بها تميّزنا خلقًا: {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ}[205].

ولأنَّنا على قيد الوجود أحياء؛ فإنَّنا لن نكون في حاجة لمن يثبت وجودنا؛ فإن كنّا في حاجة لمن يثبت وجودنا؛ فغيرنا لن يعدّنا إلّا عدمًا؛ ولذلك لا ينبغي أن نكون كما تنصّ عليه مقولة الفيلسوف ديكارت:

[205] التين: 4.

(أنا أفكر، إذن: أنا موجود)[206]. بل ينبغي أن تكون مقولتنا: (أنا موجود، إذن: أنا أفكر)، وبمقارنة المقولتين نتبيّن الفارق بينهما؛ فالمقولة الأولى: (أنا أفكر، إذن: أنا موجود) تضع التفكير شرطًا للوجود، وكأنَّ الذي لا يفكر غير موجودٍ؛ فالكون والوجود والعدم والأنهار والمحيطات على الرَّغم من وجودها فإنّها لا تفكّر؛ فهل عدم مقدرتها على التفكير يلغي وجودها؟

أمَّا المقولة الثَّانية: (أنا موجود، إذن: أنا أفكر) تضع الوجود شرطًا للتفكير. أي: لو لم يكن ديكارت موجودًا ما فكَّر فيما فكَّر فيه؛ ولذا فمن يكون موجودًا ولا يفكّر فلا يعدّ عقله إلّا عدمًا.

أمَّا قوله: (أنا أكون، أنا موجود I am, I exist)؛ فهو كمن يقول: لا أشكّ في وجودي، وهذه المقولة مع أنَّها جاءت سابقة على قوله: (أنا موجود، إذن: أنا أفكر)، فإنَّها أكثر وثوقًا؛ فالموجود لو لم يكن موجودًا ما سُئل عن وجوده؛ ممّا يدعو الموجود إلى عدم الإجابة؛ ليكون امتناعه عنها أكبر دليل على وجوده؛ ومن ثمّ يعوّض الوقت الذي أضاعه زمن استماعه لذلك السؤال، ويصبح الوقت بالنسبة إليه لم يعد صفرًا.

---

[206] ديكارت: مقال عن النهج، ترجمة: محمود الخضيري، مراجعة وتقديم: د. محمد مصطفى حلمي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1985م، ص 190.

الحياةُ حياتانِ

الحياةُ الأولى: هي الإحياء من الموتِ خَلقًا (حياة الشيء من لاشيء)، واللاشيء لا يعني العدم؛ فالعدم لا يكون إلَّا أثرًا دالًّا على من كانت له صفة المخلوق الذي خُلق من عناصر الموت الأوَّل، وهي العناصر التي تمّ إحياؤها وفقًا لكلِّ نوعٍ من المخلوقات التي خُلقت من اللاشيء وجودًا؛ ولهذا فالمخلوق وجودًا هو ذلك المفعول خلقًا، سواء أكان إنسًا أم جنًّا، أم ملائكةً، أم جمادًا، أم نباتًا، أم كائنًا من الكائنات الأخرى، وسواء أكان هيئةً، أم حيّزًا، أم فراغًا، وسواء أكان شيئًا أم اللاشيء؛ ولذا فالمخلوق هو كلّ من وُجد على كينونة ليست باختياره؛ فهو مخلوق يشاهد أو يلاحظ أو يدرك ويُحسّ به.

أمَّا ما يميّز المخلوق العاقل؛ فهو إدراكه لغايته التي بها يدرك وجود غاية مطلقة تكمن من وراء خلقه، ولا يمكن له إدراكها، أي: لا يمكن

له بلوغها؛ ذلك لأنَّ الغاية من خلق المخلوق لا يعلمها إلّا الخالق؛ ولهذا خُلق الإنسان على التسيير فيما لا يعلم، وخلق على التخيير فيما يعلم.

وحتى إن اعتقد البعض أنَّه بإمكانه في دائرة الممكن أن يشاهد الخَلق من خلال مشاهدة أجنّة الأنابيب؛ فهو في هذه الحالة كمن لا يميّز بين (الخلق والمتخلّق)؛ ذلك لأنَّ ما يشاهد لم يكن (خلقًا) بل هو: (المتخلّق)؛ فالخَلق كيفيَّة بين يدي الخالق، فيها تنتقل هيئة المخلوق من مجرَّد إلى ملاحظ، ثمّ إلى مشاهد؛ ولذلك في مرحلة الخلق لا إمكانيَّة للمشاهدة، ولكن التحاليل المعمليَّة تثبت ملاحظة عمليَّة التخلق التي قد بدأت؛ ومن ثمّ فلا شيء يشاهد في أثناء عمليَّة الخلق التي تسبق عمليَّة التخلّق القابل للمشاهدة.

ولأنَّ المخلوق لا يمكنه الدّراية بكيفيَّة خَلقه؛ فهل يمكن له أن يدري كيفيَّة خَلق من سبقه خلقًا؟ وهل يمكن للمخلوق الذي يجهل كيفيَّة خلقه، أن يعلم كيفيَّة خلق الكون الذي لا يزال قاصرًا عن معرفة خفاياه؟

وهل الحكم الذي أقرّه بعض الفيزيائيين: (الكون خُلق من لاشيء، ولا خالق له) هو حكم مشاهد أم حكم ملاحظ أم أنَّه حكم مفسّر؟

فإن كان الحكم نتيجة المشاهدة؛ فلا بدّ أن يكون المشاهد قد حضر زمن خلق الكون، وهذا ضرب من المستحيل، وإن كان ملاحظًا؛ فلا بدّ من تجربة تُخضع الكون للتجريب، وهذا ضرب آخر من المستحيل،

ولكن إن كان تفسيرًا؛ فالتفسير دائمًا يرتبط برؤية المفسّر التي لا تخرج عن دائرة الممكن المملوءة بالشكوك والظّنون.

ولذلك فالمخلوق مكوّن وجودي (مشاهد وملاحظ)؛ فالمشاهد منه يخضع للرّؤية، أمَّا الملاحظ فيخضع للإدراك، والمخلوق لا يقتصر على البشر كما يظن البعض، بل هو كلّ مخلوق، سواء أكان شيئًا، أم لاشيئًا (متناهٍ في الكبر، أم متناهٍ في الصّغر).

ومع أنَّ المخلوق البشري قد تميّز بحسن التقويم، فإنَّه لا يقبل التسليم والطّاعة كما قبلت به بقيَّة الخلائق: {تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ}[207] هكذا هو الكون طائعٌ يسبّح بحمد خالقه عزَّ وجلَّ: {ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ}[208] وفي المقابل: {وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا}[209].

الحياةُ الثَّانية: هي إحياء كلّ الموتى الذين كانوا عدمًا وأثرًا باليًا في التراب الدّنيوي؛ وهم أوليك الذين سبق لهم وإن أحييوا من ذلك الموت الأوَّل؛ مصداقًا لقوله تعالى: {كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}[210]؛ ولهذا فإنَّ الحياة الثانيَّة

---

[207] الإسراء: 44.

[208] فصلت: 11.

[209] الكهف: 54.

[210] البقرة: 28.

(الباقية) هي الحياة الصّامدة وجودًا، وفي المقابل الموت لا يصمد في مواجهة الحياة الباقية، وهذه من طبيعة الخلق التي جعلت عناصر الموت لا تصمد؛ ومن هنا فلا مستقبل للموت إلَّا الفناء الذي من بعده تبعث الخلائق والموت لن يبعث.

إذن: فمن يحيا من بعد موته ليس له إلَّا البقاء؛ ذلك لأنَّ عناصر وجوده لم تكن من ذلك الموت الذي أحيي منه أولئك الأحياء خلقًا (الخلق الأوَّل)، بل عناصره جاءت من تلك العناصر التي داهمها الموت وتركها عدمًا رميمًا.

والسّؤال:

–متى يحيا الموتى؟

الجواب: بعد موت الموت.

وهذا يعني: أنَّ عناصر البقاء تصمد وتدوم، أمَّا عناصر الفناء فتموت وتزول؛ وبذلك ينتهي الموت من الوجود؛ لتكون من بعده الحياة التي لاحقت الموت حتى قضت عليه.

وعليه: مع أنَّ الله –تعالى–خَلق الموتَ والحياةَ فإنَّه لم يخلقهما ليبقيا معًا، بل جعل الملاحقة بينهما منتهية بساعة انتصار أحدهما على الآخر، ولأنَّ الخلائق الأرضية مخلوقة من عنصر الموت الأوَّل فإنَّ مداهمتها

من الموتة الثَّانية كانت ميسَّرة، وكأنَّ الموت وحده الممتلك لعناصر القوَّة القاضية على الحياة.

ولأنَّ الحي –تعالى–هو الذي خَلق الموتَ والحياةَ فبالطبع من يستمدّ صفته منه فلا بدّ له وأن يبقى حيًّا، أي: لو لم تكن الحياة صفة مستمدّة من صفة (الحي) ما كانت هي الباقية، ولو لم يستمدّ الأحياء صفتهم إحياءً من صفة المحيي –عزَّ وجلَّ–ما كانت الحياة الثَّانية؛ مصداقًا لقوله تعالى: {ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}[211].

وعليه: فإنَّ الإحياءَ من الموتة الثَّانية لم يكن الإحياء من عناصر الموت كما هو حال الإحياء الأوَّل، بل من ذلك العدم الذي لحق الأحياء موتى، أي: إنَّه من ذلك الأثر الذي وإن أصبح عدمًا وبلي رفاتًا فإنَّه الدّليل الباقي على الحياة؛ ومن ثمَّ فإنَّ رفات الموتى أو آثارهم لن تكون حُجّة الموتِ أو الدَّال عليه، بل هي على العكس من ذلك؛ كونها رفاتًا وآثارًا لمن كان حيًّا؛ ولذا فعندما تُبعث الحياة في الأثر يصبح الأثر حيًّا باقيًا، ومن هنا تأتي حقيقة الحياة من العدمِ، أي: الحياة من الأثر الذي لا يزول وإن بَلي.

البعث

البعث: لا يكون إلّا لموجودٍ وإن كان أثرًا ورفاتًا، وهو إحياءُ من قضى الموت عليهم؛ بغاية البقاء الدَّائم، وبمعرفة مفهوم البعث نعرف

[211] البقرة: 28.

فسحة المقارنة بين تلك الحياة الأولى (الدُّنيا)، وسعة الحياة الآخرة (العليا)، التي تمَّ الإخبار عنها فكذَّب من كذَّب، وصدَّق من صدَّق، قال تعالى: {وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ}[212]، هذه الآية وغيرها كثير ستكون شاهدة على من كذَّب، ومن آمن فصدَّق وسلَّم؛ لتفتح صفحات الحساب (ثوابًا وعقابًا) دون أن يكون أحدٌ منهما غاية؛ لأنَّ الغاية البقاء الدَّائم، ولكن بعد أن تُسدَّد الدّيون؛ مصداقًا لقوله تعالى: {فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ}[213].

وعليه: فإنَّ مفهوم الحياة لا يكون مرادفًا لمفهوم البعث مع أنَّ البعث انبعاث من عدمٍ؛ ولذا فالحياة خَلق وجودي، أمَّا البعثُ فإحياء وجود من عدم؛ ومن هنا يأتي التساؤل:

-أيّهما أيسر، أن تُخلق الحياة من لا شيء، أم أن تُبعث الحياة في وجودٍ ولو كان عدمًا باليًا؟

قال تعالى: {وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ}[214]، مع أنَّ الصّعوبة لا تواجه الخَالق في صُنع خَلقه، فإنَّ الخَالق أراد أن يُبيّن لنا: أيَّهما أيسر لعقولنا: أنْ يخلق الخَالق التراب من لاشيءٍ وجودًا، وتُخلق

---

[212] الحج: 6، 7.

[213] الزلزلة: 7، 8.

[214] الروم: 27.

الأزواج منه، ثمّ يأتي من بعده التزاوج والخلق من نطفة، أم أنْ تُبعث الرُّوح حياة في أثرِ عدمٍ كان على قيد الوجود حيًّا؟ قال تعالى: {أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّنْ مَنِيٍّ يُمْنَى ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى}[215]

ومن ثمَّ فالبعث لا يكون إلّا لوجودٍ سابق؛ سواء أكان عدمًا، أم لم يلحقه العدم بعد، أي: بعث الأرواح في المخلوقات لتصبح حيَّةً؛ مصداقًا لقوله تعالى: {ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ}[216]، بمعنى: بعثناكم أحياءً؛ لتروا تلك الحقيقة التي بُعث بها الأنبياء والمرسلون؛ فكان منكم المصدّقون الموحّدون الطّائعون، وفي المقابل كان العصاة والكافرون: {يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ}[217].

وعليه: لقد تأسّس الوجود البشري خَلقًا من ستِّ حلقات متداخلة؛ منها المتزامن وجودًا، كما هو حال الحياة والموت، ومنها المتلاحق وجودًا، كما هو حال العدم الذي يلاحق الأموات، وحال

---

[215] القيامة: 36 ـ 40.

[216] البقرة: 56.

[217] المجادلة: 6.

البعث الذي يلاحق من كان عدمًا، وحال الرُّجوع إلى الله من بعد بعث، وهكذا هو الوجود حلقات ست وبعضها من بعضٍ، وهي:

1 . الحياة.

2 . الموت.

3 . العدم.

4 . موت الموت.

5 . البعث.

6 . الرّجوع إلى الله.

ولأنَّ كلَّ هذه المراحل لا تتعدّد وإن تعدَّد المستهدفون بها وجودًا، فهي حقائق الوجود خلقًا من المستحيل، الذي لا يكون إلّا بيد الخالق جلَّ جلاله.

ولسائل أن يسأل:

بما أنَّ الخالق خلق كلّ شيء لا خلاف عليه، إذن: فمن أين جاء الخلاف؟

جاء الخلاف من خَلقِ الزَّوجيَّة (التسيير والتخيير)، فمن حيث التسيير الواحديّة ثابتة؛ إذ لا خالق إلّا الواحد، أمَّا من حيث التخيير؛ فلا إكراه بعد أن تبيّن الحقّ من الباطل؛ مصداقًا لقوله تعالى: {لَا إِكْرَاهَ

فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ}[218]؛ ولذا فمن اتبع أمر الواحد أخذ بأمر الحقِّ (الحق واحد)، ومن خالفه وعصاه أخذ بغيره (الباطل) وعلى الباطل خلاف، أي: يجب أن يكون الخلاف على الباطل، ولا ينبغي أن يكون على الحقِّ، لأنَّ الحقَّ لا انحياز فيه لغيره، أمَّا الباطل فالانحياز فيه (إليه) لغير الحقِّ، والانحياز لغير الحق يجب الخلاف معه؛ ذلك لأنَّ الحقَّ لا مظالم، أمَّا الباطل فتملؤه المواجع والمظالم والآلام والمفاسد، أي: إنَّ الحقّ إذا دخله الظُّلم يصبح مختلفًا عن الحقّ بلا مظالم.

وعليه: فالواحديَّة لله تعالى، وهي لم تكن مبدأ، ولا حكمة، ولا نظريَّة، بل الواحديَّة تعني أنَّ الله واحد لا يتوحّد في شيء؛ لأنَّ الشيء من مخلوقاته؛ ومن ثمّ فالخالق لا يتوحّد فيما خَلق؛ ومن هنا فالكون المخلوق بالأمر (كن) سيظل مخلوقًا، ولا يمكن له أن يرتفع إلى رفعة الخالق الذي لا واحديّة إلَّا له[219].

ومع أنَّ الواحديَّة تستوجب الإقرار بها، فإنَّ إنكارها لا يلغيها؛ فالقاعدة المنطقية تقول: (لا يمكن أنْ يُنكر شيءٌ لو لم يكن شيئًا)، فما بالك بالواحد الذي أوجد الخلق كلّه شيئًا واللاشيء؛ ولذا يعد الإنكار

---

[218] البقرة: 256.

[219] عقيل حسين عقيل، الواحدية من الخلق إلى البعث، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة: 2018م، ص 134 – 136.

صيغة إثبات المنكّر عمدًا؛ ولتبيان ذلك علينا أن نميّز بين مفهومي، الإنكار والنفي:

مع أنَّ لكلٍّ من الإنكار والنفي مفهومه الخاصّ به، فإنَّ تداخلًا كبيرًا بين مفهوميهما؛ فالنفي يعود إلى إثبات حقيقة مفادها عدم الإقدام على الشّيء، وفي مقابل هناك من يَقدم عليه؛ فعلى سبيل المثال: الجميل الحسن كونه فضلًا في مرضاة الله، لو لم يكن بين النَّاس قيمة حميدة تُفعل ما اعترف به من يعترف، وما أنكر فعله من ينكر، وهكذا الكذب لو لم يكن موجودًا ما كان يقال من بعض النَّاس عمدًا، ومن هنا فلا إمكانيّة لإنكار الكذب وهو على قيد الحياة جودًا.

وأقول: إنَّ حال التمييز بين مفهومي الإنكار والنفي مثل حال التمييز بين مفهومي الحقّ والباطل؛ ذلك لأنَّ فعل النفي فعل حقّ، وأنَّ فعل الإنكار فعل باطل، فعلى سبيل المثال: لو سأل القاضي متَّهمًا أو مذنبًا أو مجرمًا عن حقيقة ارتكابه الفعل الإجرامي، فما هو المتوقّع؟

المتوقّعُ أحد إجابات ثلاث:

1 ـ أنْ يُنكر الفعل الإجرامي على الرّغم من إثبات الأدلة واعتراف الشهود.

2 ـ أنْ يُنفي الفعل الإجرامي؛ لأنَّه حقيقة لم يرتكبه على الرّغم من التُّهم الموجهة.

3 ـ أنْ يتم الاعتراف بالفعل المرتكب.

ومن خلال المثال السَّابق نلاحظ أنَّ مفهوم الحقيقة ظاهرٌ في حالتي: النّفي والاعتراف، أمَّا الإنكار فليس بنفيٍ ولا اعتراف، بل إنَّه القول الباطل زورًا.

ولذا يُعدُّ الادِّعاء بعدم المعرفة إثباتًا لها، وهكذا الحقيقة يتم إثباتها بالتصميم على إنكارها؛ ولذا فإنَّ الادعاء بأيِّ علة يدلّ على تعمّد إخفاء الحقيقة وإثبات العلّة.

ولتوضيح ذلك، لو سألك سائلٌ:

–هل صَلّيتَ؟

ـ فإنْ صلّيت فستقول: نعم (إثبات).

ـ وإذا لم تصل بعد، فستقول: لا (نفي).

ـ أمَّا إذا لم تعترف بالصَّلاة على الرّغم من تعرّفك عليها، فإنَّك ستقول منكرًا (الإنكار)؛ ومن هنا قلنا: إنكار الشّيء وجودًا يثبت وجوده شيئًا. وإلّا هل يُمكن لنا أن نُنكر شيئًا لو لم يكن ذلك الشّيء موجودًا؟ أي: هل يُمكن لنا أن نُنكر الكذب لو لم يكن الكذب موجودًا؟ ومع أنَّه الكذب فإنَّ مفهومه يختلف عن مفهوم: النفي، والإثبات، والإنكار؛ ذلك لأنَّ النفي والإثبات كلًّا منهما قول حقّ، وفي المقابل الإنكار قول

باطل، أمَّا الكذب قول ما لم يحدث، أو لم يكن موجودًا أبدًا، وهو لا يزيد عن كونه مبالغةً في التفاخر، الذي قد تترتب عليه قرارات خاطئة.

ومع أنَّ إنكار الحقيقة لا يلغيها، فإنَّ بعض النَّاس ليس لهم إلَّا إنكارها، وهذا ما لا يليق بعاقل، أي: لا يليق بمن خَلقه الله في أحسن تقويم، وجعله في الأرض خليفة، ومن ثمَّ فسيكون النَّاس بين صادقٍ وكاذبٍ ومؤمنٍ وكافرٍ ومشركٍ إلى يوم البعث المعلوم.

ولسائل أن يسأل:

كيف يكون يوم البعث يومًا معلومًا، وهو علم السَّاعة، وعلم السَّاعة علم غيب؟

أقول: نعم.

إنَّ علمّ السَّاعة لا غيب فيه عن الله؛ مصداقًا لقوله تعالى: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ}[220] فقوله: {وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} تثبت أنَّ القليل من النَّاس يعلمون، وهؤلاء هم المؤمنون حقًّا الذين مع أنَّهم يؤمنون بأنَّ السَّاعة آتية لا شكّ فيها، فإنَّهم لا يعلمون ساعتها التي لا يعلمها إلَّا

[220] الأعراف: 187.

هو جلَّ جلاله، ومن هنا فنحن نعلم بالسّاعة التي أبلغنا الله بها وأعلمنا، ولكنَّه لم يعلمنا بساعتها (وقتها)؛ ومن هنا نقف وعلمنا عن علم ساعتها قاصرين.

ولأنَّ قيام السّاعة يوم بعث، فإنَّ يوم البعث يوم الحياة الباقية؛ ولهذا فالقاعدة الخَلقيَّة (البقاء)، أمَّا (الفناء) فهو الاستثناء. {أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ}[221].

ولأنَّه لاشيء قبل الخلق إلَّا الخالق، والبعث شيء، إذن: البعث مخلوقٌ، أي: إنَّه المخلوق الذي يسري في الوجود حياة.

ومع أنَّ البعث واحد فإنَّ المبعوث ليس بواحدٍ، ولتبيان ذلك أقول:

البعث أوَّلًا: كان بعثَ الوجودِ حياة من لا شيء.

البعث ثانيًا: سيكون من بعد ذلك العدم الذي لحق الأموات فجعلهم عدمًا.

وعليه:

في بعثِ الخَلقِ الأوَّل يسري الوجود حياةً، أمَّا في بعث الخلق الثَّاني فتسري الحياة وجودًا.

---

[221] يس: 81.

إذن:

أوَّلًا: كان الوجود بعثًا (بعث الحياة).

ثانيًا: سيكون الوجود بعثًا (بعث الأحياء) أي: بَعث الأموات من عدمٍ بالٍ إلى وجودٍ حيٍّ؛ بَعثٌ به يقوم الأموات من الأرض أحياء كما قام منها أبوهم آدم من قبلهم خَلقًا، وجميعهم وكأنّهم نبات الأرض، قال تعالى: {وَاللَّهُ أَنْبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا}[222]، ويوم قيامهم من الأرض قيامًا معجزًا سيعرف الجميع إنَّه يوم القيامة الذي فيه يُجمع الجميع ولكلٍّ حسابه: {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا}[223].

ومن ثمَّ فيوم البعث يوم قيامة، أي: قيامة الأموات أحياء، ولا موت يلاحقهم؛ ولهذا فهو يوم البقاء الدّائم، الذي تقوم فيه الحياة على حساب الموت؛ إنَّه يوم قيام الحقّ على الباطل؛ إذ لا خافية، {يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ}[224].

---

[222] نوح: 17، 18.

[223] النساء: 87.

[224] الحاقة: 18.

الرُّجوعُ إلى الله تعالى

إنَّ الوجود الذي سبق لنا البحث في معطياته ليس صراعًا ولا مغالبةً بين الموتِ والحياةِ، بل الموت والحياة إعطاء فرصة لمعرفة المعجزات والمستحيلات والممكنات والوقوف عند كلٍّ منها: إدراكًا، وملاحظةً، ومشاهدةً، وتفكُّرًا، وتدبّرًا، وتذكّرًا، واتعاظًا يُمكّن من الإيمان بالذي خلق الموت والحياة؛ ولذا فمن غفل عنها، أو كفر بها، أو تكبَّر وتأبّى فلن يُترك هكذا؛ مصداقًا لقوله تعالى: {كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}[225].

إنَّ الرُّجوع إلى الله لا يعني أنَّه كان غافلًا عنكم وكأنّكم متروكون هكذا عبثًا، بل يعني: الرُّجوع إلى يوم المحاسبة والمساءلة المترتّب عليه جزاؤكم من الله: (عقابًا أو ثوابًا)؛ ولذلك فإنَّ الرّجوع إلى الله رجوع بغاية الاحتكام إليه فيما كانوا فيه يختلفون ويتخالفون في حياتهم الدُّنيا؛ إذ لا حكم نافذ يوم الرّجوع إليه إلَّا بيده: {لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ}[226]. والرّجوع إلى الله يوم البعث العظيم مثل رجوع الغافل من غفلته إلى الصّحوة بعد موقفٍ لفته إلى نفسه وعقله وضميره؛ ولذا فإنَّ

---

[225] البقرة: 28.

[226] غافر: 16.

أولئك الذين كانوا في حياتهم الدّنيا غافلين؛ ففي يوم الرّجوع إليه –ولا مفرّ–سوف تستوقفهم حقائق أعمالهم؛ فيصحوا نادمين، ويومها يصبح النَّدم ليس بمنقذٍ؛ ومن ثمَّ فالحكم لله وحكمه نافذ: {وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ}[227].

ومع أنَّ الغافلين في حياتهم الدُّنيا إذا رجعوا إلى ربّهم يقظةً غَفَرَ لهم ذنوبهم، فإنَّ الغافلين إلى يوم القيامة وإن رجعوا من غفلتهم واستيقظوا؛ فلن يغفر الله لأحدهم إلَّا مَن كُتبت له المغفرة.

إذن: يوم البعث لا شكّ أنَّ الخَلق الآدمي سيرجعون إلى ربّهم؛ ليحكم بينهم فيما كانوا فيه يختلفون: {فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ}[228]؛ لأنَّ يوم الرّجوع إليه بعثًا هو يوم حشرٍ؛ مصداقًا لقوله تعالى: {وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ}[229]، والحشر يوم الرّجوع إليه لا يعني الحشر المكاني ضيقًا، ولا يعني الحشر بسوء إدارة أو تصرّف، ولا يعني الحشر لعدم المقدرة، بل إنَّه يوم الحشر للخلائق وأعمالهم شاهدة عليهم؛ ومن ثمَّ فمن ضاقت عليه أعماله حُشر في ضيقها، ومن وُسعت له أعماله حُشر في سعتها؛ ومن ثمَّ فالكل محشورٌ

---

[227] مريم: 39، 40.

[228] البقرة: 113.

[229] المؤمنون: 79.

في أعماله، فمن ضاقت عليه أعماله حُشِرَ فيها ضيقَ عذابٍ، وجزاؤه جهنَّم، وَمَنْ وسعت له أعماله حُشر فيها سعةً ورحمةً، وجزاؤه جنَّة.

وعليه: فالحشر هو استحضار الكلّ ولا استثناء، حشرٌ عن غير إرادة للمحشورين وخياراتهم ؛ ولذا فلا مفرَّ من الحشر، أي: إنَّ الخلائق كلّها ستمرُّ محشورة على الصّراط المستقيم، وهي متدافعة تدافع إحقاقِ حقٍّ بغاية التنفيذ، وليس بغاية الوعد ولا الوعيد كما هو الحال في الحياة الدُّنيا؛ قال تعالى: {إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى}[230]، أي: لا مرجعيَّة للحكم إلَّا حكم الله الذي بيده أمر الرُّجعى (أمر العدالة)، والرُّجعى هنا مصدر الحكم العدل؛ ولهذا فالرجعى مصدر الحكم ومرجعيَّته، وهو ما أنزل وحفظ في الكتاب المحفوظ قرآنًا.

وعليه: فإنَّ تلك الأحكام التي كانت مؤجّلة في الحياة الدُّنيا قد جاء وقت نشرها وتنفيذها حشرًا؛ ومن هنا يُفهم أنَّ كلّ الأحكام التي أُبلغ بها قرآنًا، سواء أكان وعدًا أم وعيدًا، أم أمرًا ونهيًا، أم تجنّبًا وتحريمًا، فإنَّها الأحكام التي كانت على العلم يقينًا وقد أصبحت عين اليقين ولا مفرّ، أي: أصبحت عين اليقين شاهدة أمام من أخذ بها في حياته الدّنيا ومن لم يأخذ؛ قال تعالى: {وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ

[230] العلق: 8.

وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ}[231].

ولمتسائل أن يتساءل:

–متى، وأين يصدر الحكم الربَّاني؟ وأين يُنفّذ؟

أقول: بالنسبة إلى الإجابة عن السُّؤال: متى؟ فإنَّ زمن التنفيذ في الدّارين (كائنٌ وسيكون)، غير أنَّ الجزاء العظيم والعذاب العظيم لا يكونان إلَّا يوم العرض عليه (يوم يبعثون)، وبمقارنة العذاب الدُّنيوي بالعذاب الأخروي تكاد المقارنة لا تجد فسحة لها ولا مقارن؛ ومن هنا فذلك الطّوفان الذي أغرق الأرض ومن عليها زمن النبي نوح عليه السَّلام، وتلك الطَّاغية التي أهلكت قوم ثمود، وتلك الرّياح الصّرصر العاتية التي أهلكت قوم عاد، وذلك الغرق العظيم الذي لحق آل فرعون، وذلك الدّمار الشّديد الذي لحق قوم لوط عليه السَّلام، وذلك العذاب الشّديد الذي أُنزل على قوم شعيب يوم الظّلة، فتلك العذابات التي لحقت من لحقت في الحياة الدّنيا، وإنْ عظمة شدّتها فإنَّ عذاب الآخرة أعظم ألماً وأكثر شدّة.

وفي المقابل أيضًا نجد في الحياة الدُّنيا ذلك الجزاء الأوفى الذي كان ثوابًا من الله ورحمة على أنبيائه ورُسُله الكرام ومن تبعهم مؤمنًا بما أمر ونهى؛ فكانت النجاة لهم دون غيرهم من كلّ شدّة؛ قال تعالى: {إنَّ

[231] الأعراف: 44.

الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَّهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا}[232].

وعليه: مهما حاولنا أن نقارن بين الجزاءين (الدّنيوي والأخروي) فإنَّه لا إمكانيَّة للمقارنة بين العذاب الدّنيوي والعذاب الأخروي؛ فعذاب الدّنيا مرَّةٌ واحدةٌ أو فرصة ومن ورائها فرصة، ثمَّ ينتهي الأمر (حياةٌ طيّبةٌ، أو موتٌ مؤلمٌ)، أمَّا عذاب الآخرة فثماره نار جهنّم.

وفي المقابل مهما قارننَّا بين الجزاء الدّنيوي والجزاء الأخروي ثوابًا فلا إمكانيّة للمقارنة الموضوعيَّة؛ لأنَّ جزاء الدُّنيا نجاة من المؤلم والموجع، أمَّا جزاء الآخرة فجنّة عرضها السّماوات والأرض: {وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّنْ رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ أُولَئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّنْ رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ}[233].

---

[232] النساء: 56، 57.

[233] آل عمران: 133 – 136.

أمَّا الإجابة عن التساؤل: **أين تصدر الأحكام؟**

أقول: كلّ الأحكام الدّنيويّة والأخرويّة تصدر في الحياة الدّنيا، وهي كلّها أحكام صادرة ونافذة، وهي في اللوح المحفوظ محفوظة قرآنًا، ومع أنَّها أحكام صادرة ونافذة، فإنَّ أمر تنفيذها (جنَّة أو نارًا) لا يكون إلَّا في الحياة الآخرة (يوم يبعثون).

وإذا تبيَّنَّا وتدبّرنا كلام الله قرآنًا نجد أنَّ الله –تعالى–قد أصدر أحكامه على الأعمال والأفعال قبل أن تُعمل وتُفعل؛ ومن هنا فلا أحد يؤخذ على حين غرّة، ولا أحد يقول: لم تمنح لي الفرصة؛ ليعلم بما أُنزل للكافَّة أحكامًا مفصّلة؛ ذلك لأنَّ الله قد أنزل كل شيء شاهدًا على النَّاس (علم يقين وحقّ يقين)؛ ولذا فما أُنزل قرآنًا مفصَّلًا على الرَّسُول الخاتم –عليه الصَّلاة والسَّلام–فسيكون يوم القيامة منشورًا أمام فاعليه عينَ يقينٍ، وفي ذلك اليوم ستشهد الأعمال والأفعال على عامليها وفاعليها ولا شيء يخفى. إنَّها العين البيّنة؛ إذ إنَّ الأحكام التي صدرت من الله ثوابًا أو عقابًا في الحياة الدّنيا قد أخبر الله بها، وهي التي بها رُسُله بلغوا بها أقوامهم وشعوبهم وأممهم قبل أن يقدم أصحابها على أعمالها وأفعالها، وهي الأعمال والأفعال التي لم يكن حكمها قابلًا للتنفيذ إلَّا بعد الإقدام عليها وارتكابها؛ ومن هنا كان للإنذار مفهومٌ ودلالةٌ ومعنى.

أمَّا الجواب عن التساؤل:

–وأين ينفّذ الحكم؟

أقول: إنَّ الدَّار الآخرة ليست بدارِ إصدار الأحكام، بل هي دار تنفيذها، ولكلٍّ عمله: {مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ}[234].

وعليه: في ذلك اليوم المنتظر بعثًا سيكون الحشر ثوابًا وعقابًا، أي: ثوابًا لمن ثقلت موازنه، وعقابًا لمن خفّت موازينه؛ ولذا فمن عمل صالحًا فلنفسه ومن أساء فعليها: {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ}[235].

ولأنَّه لا رُجعى للأحكام الصّادرة إلَّا اللوح المحفوظ، إذن: كل الأمر لا رُجعى له إلَّا كتاب الله الذي أنزله على رسول الكَّافة هدًى ورحمةً: {وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ}[236]، وقال تعالى: {وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ}[237]؛ ولأنَّه اللوح المحفوظ فلا شيء يضيع؛ ومن ثمَّ ففي يوم الرُّجوع إلى اللوح المحفوظ سيجدون أعمالهم كلّها أمامهم (سالبها وموجبها)، ويومها يعترفون بالحقيقة التي صدرت الأحكام عليها: إيمانًا وتوحيدًا، أو شركًا وكفرًا: {وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ

---

[234] غافر: 40.

[235] فصلت: 46.

[236] النحل: 64.

[237] هود: 123.

مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا}[238].

إذن: كل شيء وقد أحصاه وعدّه عدًّا، ولا شيء بعد ذلك مَخْفِيٌّ؛ ذلك هو يوم النشور، الذي تنشر فيه الأعمال أمام مرتكبيها، والنشور هنا إظهار كل شيء ولا شيء من بعده مخفيٌّ؛ ففي يوم البعث والرّجوع إليه –تعالى– فمَن عمل صالحًا يجده منشورًا، ومَن عمل طالحًا يجده منشورًا، ولكلٍّ نفس ما عملت؛ ذلك هو يوم النشور الذي يؤل إليه: {وَإِلَيْهِ النُّشُورُ}[239]، وهو اليوم الذي تشهد الأعمال فيه على مرتكبيها: {يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ}[240].

وبناء على ما تقدَّم مِن بحثٍ: فإنَّ نتيجة موضوعيَّة تؤكّد أنَّ الموتَ والحياةَ جزاءً مِن الوجود العام خَلقًا، وهو الوجود الذي يستمدّ بعضهُ مِن بعضٍ إلى النّهايةِ، حتى يقف عاجزًا أمام المستحيل، الذي به خُلق الوجود والموت جزاء فيه جنبًا إلى جنبٍ مع الحياة.

ومع أنَّ الموت والحياةِ خُلِقَا جنبًا إلى جنبٍ وجودًا، فإنَّ معطيات كلٍّ منهما وجودًا تختلف عن معطيات الآخر، ومع أنَّ كلٍّ منهما وقد

---

[238] الكهف: 49.

[239] الملك: 15.

[240] الزلزلة: 6 – 8.

خُلق خلقًا، فإنَّ بقائهما جنبًا إلى جنبٍ لا يدوم؛ ومن ثمَّ فسيختفي أحدهما ويبقى الآخر على حسابه.

وإنْ تفحّصنا مفهوم الموت وفقًا لما تقدّم، فإنَّنا نعرف أنَّه لا صفة له يتّصف بها إلَّا الموت، والذي صفته الموت فلا أمل له أنْ يبقى على قيد الحياة وجودًا سرمديًّا.

ولأنَّ الموتَ والحياةَ مخلوقان خلقًا؛ مصداقًا لقوله تعالى: {تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ}[241]، ومع أنَّ النّظرة المبتدئة للإنسان بساطة ترى أنَّ لكل بداية نهاية، فإنَّ النظرة الموضوعيَّة للباحث المتفحّص ترى أنَّ معطيات الموت غير معطيات الحياة، فالموت الذي سِمّي على صفته موتًا ليس له إلَّا الموت، والحياة التي سِمّيت على صفتها حياةً فليس لها إلَّا الحياة بقاءً.

والموت كونه اسمًا على مسمى فلن يخرج عن اسمه الذي سَيُقبر فيه موتًا؛ ولذا فإنَّ صفة الموت الانتهاء، وفي المقابل صفة الحياة البقاء.

ومع أنَّ الموت صفة ومسمّى هي (موت)، فإنَّ الموت لا يُميت أحدًا، ومع أنَّ الحياة صفة ومسمى (حياة)، فإنَّها لا تحيي أحدًا؛ ذلك لأنَّ الذي يُميت هو خالق الموت (المميت جلَّ جلاله)، والذي يحيي هو خالق الحياة (المحيي جلَّ جلاله).

---

[241] الملك: 1، 2.

إذن: فمهما لاحقَ الموتُ الحياةَ فإنَّه لن يقضي عليها، حتى وإن قضى على كلِّ الأحياء في الوجود الدّنيوي، وفي المقابل ستظل الحياة ملاحقة للموت، حتى يُحيي الله كل من أصبح على صفة الموت عدمًا.

وعليه: ليس للموتِ صفة يبقى عليها إلَّا الصّفة التي خُلق عليها موتًا، وكذلك ليس للحياة صفة تبقى عليها إلَّا الصّفة التي خُلقت عليها حياةً؛ ولهذا يوم البعث كلّ الأموات ستبعث حياةً إلَّا الموت سيبقى ميّتًا ولن يُبعث؛ ومن هنا فإنَّ الحياة الآخرة خاليةٌ من الموت؛ ولذا فهي الحياة الباقية: {وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ}[242].

ولأنَّ الحيويَّة صفةُ الحياة بقاءً، وأنَّ النّهاية صفة الموت فناءً؛ إذن: فليس للموت إلَّا الموت نهايةً، وليس للحياة إلَّا الحياة بقاء، ومن هنا فإنَّ عمر الموت قصيرٌ إذا ما قورنَ بعمر الحياة الذي يمتد بقاء في الدَّارين ولا منافس.

ومع أنَّنا نتّفق مع ما قاله علماء الفيزياء بحثًا: إنَّ الكونَ ما زال متسارعًا في تمدّده إلى النّهاية، وهي النّهاية التي ستعيده انكماشًا إلى تلك الذَّرة التي قالوا عنها: (إنَّه قد خُلق منها بعد أن انفجرت) فإنَّنا لم نجد حُجّة لنأخذ بها ونسلّم، بقولهم: إنَّ الكون مخلوقٌ من تلك الذَّرة، وإنَّ الكون خالق لنفسه، ولا خالق من ورائه.

---

[242] العنكبوت: 64.

ومن ثمَّ، كيف لنا أنْ نسلّم بأمرٍ يُراد لنا أن نسلِّمَ به وفقًا لرأي قليلٍ من علماء الفيزياء، ونحن بين أيدينا مصدرٌ يُثبت أنَّ الكون لم ينفجر أبدًا، ولم يكن من تلك الذَّرة التي قالوا عنها: إنَّها متناهيّة في الصّغر، أي: كيف لنا بقبول ذلك والتسليم به ونحن بين أيدينا آيات منزَّلات حُجّة من بعد حُجّة بأنَّ الكون قد خُلق على كينونة الرتق كما سبق تبيانه، ثمَّ فُتق صيرورة سبع سماوات طباق ومن الأرضِ مثلهنَّ: {تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا}[243]، وقال تعالى: {بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}[244] فقوله: {بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} يدلُّ على أنَّهُ لا سابق لخَلقِ شيءٍ إلَّا مِن خَلقه تعالى؛ لأنَّهُ البديع الذي أبدع كل شيء من لا شيء، وأحسن خَلقه شيئًا.

ولأنَّه الخالق الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ: {الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ}[245]، فقد جاءت الخلائق على هيئتين:

– **هيئةُ الكينونة:** وهي الهيئة التي وُجد الكونُ عليها وفيه كينونات؛ ككينونات: الموت، والحياة، والعدم، والبعث، وكذلك كينونة وجودنا التي كانت على الهيئة الآدميَّة، أو كما هو حال كينونة الملائكة

---

[243] الملك: 1 – 3.

[244] البقرة: 117.

[245] السجدة: 7.

والجن، وهكذا جاءت الكينونات بعضها من بعض بكيفيَّات مختلفة ومتنوّعة، ولا تكرار حتّى وإن تقاربت الصِّفات، مما جعل لكلِّ الكائنات كينوناتها التي بها تتميّز وتتنوّع على الشَّكل والصُّورة، حتّى وإن كانت دقيقة وصعبة الرُّؤية، وهكذا كان حال تلك الهيئات التي أصبحت على الصّورِ والأشكالِ بحارًا وأشجارًا وجمادات، وطيورًا وأسماكًا، وغيرها مما خَلق؛ إذ لا مخلوق إلَّا وعلى الهيئة والكينونة الخاصّة به والصّفة.

ومع أنَّ أساس وجود الكينونة هو الوجود الخَلقي، فإنَّ للإبداعات العلميَّة وإضافاتها المعرفيّة كينونات وبعضها من بعض؛ ولذا فللفكرة المبدعة كينونة في العقل الإنساني، وستظل على كينونتها وهيئتها حتى تولد وتصبح بين الأيدي علمًا ومعرفة بعد أن كانت مجرّد فكرة.

ولأنَّ الكينونة في دائرة النسبيَّة ذاتُ ثباتٍ صفةً وهويّةً وهيئةً؛ فإنَّ الخلائق قد ثَبُتت على صفاتها وهويَّاتها وهيئاتها التي خُلقت عليها خَلقًا، وستظل متنوِّعة على كينوناتها ما بقيت إلى النِّهايةِ؛ فالموت على سبيل المثال: سيظل على كينونته يسع كل الأموات دون أن يفرِّط في ميّتٍ واحدٍ ما دام على قيد الوجودِ حيًّا، وهكذا تماثله الحياة الدُّنيا في كينونتها التي تسع كلّ الأحياء دون أن تفرِّط في حيٍّ واحدٍ ما دام حيًّا، وبالتمام كينونة العدم التي لن تُفرِّطَ في أيِّ أثرٍ لمن كان حيًّا، ومع أنَّه العدم أثرًا فالأثرُ عدمًا سيكون على هويّته؛ وهي المحافظة على تلك الهويَّات والكينونات التي صارت على ما صارت عليه عدمًا.

ولسائل أن يسأل:

–كيف يمكن لنا أنْ نُمَيِّزَ بين العدم كينونة وصيرورة؟

أقول: إنَّ كلّ الخلائق على هيئاتها وكينوناتها خُلقت، فالموت على كينونته وهيئته كان موتًا، والحياة على كينونتها وهيئتها كانت حياةً، وهكذا كان للعدم كينونته وهيئته عدمًا وهي التي سيظل عليها حتى تحيا تلك الرَّمائم من عدمها: {مَنْ يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ}[246].

وأقول أيضًا:

علينا أن ندرك أنَّ حَلقات الكينونة والصّيرورة متداخلة؛ إذ لا كينونة إلَّا ولها هيئة سابقةٌ عليها، ولا يمكن أن يَصير الشيء على ما هو عليه شيئًا إلَّا بعد أن يصمّم له الخالق أو الصَّانع هيئة يصير عليها شكلًا أو صورة، وفي هذه المرحلة أو الأثناء لا يمكن وصف ما تَرمي إليه الهيئة إلَّا خيالًا، أمَّا بعد أن تعبأ الهيئة (القالب) بطينة المخلوق يصير المخلوق على كينونة تُوصف.

إذن: لا يمكن أن يكون الشّيءُ شيئًا إلَّا وفق مشيئة مَن شاءهُ شيئًا؛ ولهذا فهيئة الشيء خَلقًا تتهيأ للخالق أو الصّانع بغاية مهمّة ووظيفة يشاء لها أن تكون بتلك الهيئة شيئًا، ومن ثمَّ يصير الشّيءُ على

[246] يس: 78.

كينونتهِ وفق هيئة تؤدّي مهمة، أو تلعب دورًا يثبت أنَّ وراء كلّ علّة معلول، ووراء كلِّ مخلوقٍ خَالقٌ.

– **هيئةُ الصّيرورة**: الصّيرورةُ مشيئةٌ خَلقيّة تُحدثُ خَلقًا على الهيئة التي يراد لها أن تكون عليه أو تصير شيئًا، سواءٌ أكان الشّيءُ ملاحظًا (حقّ يقين)؛ مصداقًا لقوله تعالى: {فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ}[247]، أم أنَّ الشيء كان مشاهدًا عينَ يقين (مشاهدة بصريَّة): {أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ}[248]، أم أنْ يكون الشيء مدركًا إدراكًا علميًّا يقينيًّا: {أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ}[249].

ومع ذلك فإنَّ هيئة الصّيرورة على وجهين:

الوجهُ الأوَّل: هو ما ستَصير عليه الكينونة، وهذا يعني: أنَّ الكينونة قبل أن تكون على ما هي عليه كينونة لا بدَّ وأن تسبقها الكيفيَّة التي ستصير عليها أو تكون؛ ولذا فما صار عليه الموت موتًا هو ما سيصر عليه موته موتًا، أي: إنَّ الموتَ قبل أنْ يُخلق موتًا سبقته مشيئة المشيء له شيئًا فكان الموت عليها هيئة كما شاءه المشيء: {وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ

---

[247] النمل: 22.

[248] الغاشية: 17 – 20.

[249] الأنبياء: 30.

آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا}[250].

الوجه الثَّاني: يختلف عمَّا صارت عليه الكينونة كما هو حال الوجه الأوَّل؛ ذلك لأنَّ الوجه الثَّاني هو الذي سَيُبيّن لنا ما سوف يصير بتلك الكينونة موتًا وحياةً (مستقبل الكينونة)، وخير مثال: وجود الموت الذي يؤدّي مُهمَّته التي صار عليها موتًا، وهي المهمّة التي تُثبت أنَّه ما زال على قيد الحياة وجودًا، وهي الصّفة التي سيظل عليها الموت ما بقيت الحياة الدُّنيا، أي: إنَّ هذه الكينونة هي الصّفة التي صار الموت عليها كما نعرفه وجودًا على قيد الحياة، أمَّا ما سيصر عليه مصير الموت فلن يكون حيًّا؛ ومن ثمَّ فلا مستقبل له على قيد الحياة بقاءً.

ومع أنَّه لا مستقبل لبقاء الموت على قيد الحياة، فإنَّه ما سيصير عليه لا بدّ وأن تكون له كينونة البقاء، ولتبيان ذلك يُطرح السُّؤال الآتي: **أين سيصير الموت يوم يبعثون؟**

الإجابة المباشرة مصيره الموت، أمَّا الإجابة المتفحّصة تقول: نعم للموت مصير، والمصير هنا يعني البقاء موتًا، أي: بقاؤه مقبورًا في بيئته موتًا؛ حيث لا وظيفة له ولا دور، ومن هنا نقول: إنَّ الصّيرورة فعل متغيّر، والكينونة فعل ثابت.

[250] الفرقان: 3.

ومع أنَّ الكينونة من حيث المفهوم واحدة، وأنَّ الصّيرورة من حيث المفهوم واحدة، فإنَّ هيئة كلٍّ منهما مختلفة تمامًا؛ إذ إنَّ الصّفة المميّزة لهيئة الكينونة هي صفة الثَّبات، والصّفة المميِّزة للصّيرورة هي صفة التغيّر والتبدّل والتطوّر.

ولأنَّ الخالقَ واحدٌ، فالواحد لم يَخلق الواحد، بل الواحد خَلق الأزواج جميعها: الحياة والموت، الكينونة والصّيرورة، التسيير والتخيير، العدم والبعث، وهكذا خَلق من كلِّ شيءٍ زوجينِ اثنينِ، ومن ثمَّ خَلق التكاثر: {وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ}[251].

ومع أنَّ الإنسان خُلق كينونة في أحسنِ تقويم، كما هو حال أبينا آدم، فإنَّ أبانا آدم صيرورة صار على معصيّة، وهي المعصية التي لا علاقة لها بكينونة خَلقه في أحسن تقويم؛ لأنَّ صفة خَلقهِ في أحسنِ تقويم صفة ثابتة ولا تتغيّر، أمَّا الذي تغيّر بما صار عليه أبونا آدم في أثناء ارتكابه فعل المعصية هو الأخلاق: {وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى}[252]؛ ومن هنا فكينونة خَلق آدم –عليه السَّلام– ظلت ثابتة، أمَّا صيرورة أخلاقه القيميَّة فمتغيرة؛ ولهذا بَقيت كينونة الخَلق الآدمي ثابتة كما خُلقت، وظلت صيرورة منظومته الأخلاقيَّة قابلة للتبدّل إلى النِّهاية.

---

[251] الذاريات 49.

[252] طه 121.

وعليه: ينبغي أن نميّز بين صيرورتين:

. الصّيرورة الأولى: ما نكون عليه مسيّرين؛ إذ لا تخيير لنا في خَلق أنفسنا، ولا تخيير لنا فيما تجري به المقادير: {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ}[253].

إذن: فصيرورة التسيير تتمركز على ألَّا إرادة؛ ومن هنا فلن تجد الرَّغبة ولا المقدرة مكانًا لها لتحلَّ فيه وتستقر: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ}[254].

. الصّيرورة الثَّانية: وهي ما صرنا عليه مخيّرين؛ إذ لا إكراه، فنتعلّم باختياراتنا بعد أن نعرف معنى الاختيار، نُحب ما نُحب أو من نُحب،

---

[253] الروم: 20 – 24.

[254] البقرة: 258.

ونكره ما نكره أو من نكره باختياراتنا، نغيّر أذواقنا ومعارفنا وتخصصاتنا بتغيّر معلوماتنا، نؤمن أو لا نؤمن، نكفر أو نشرك، نعمل الخير أو لا نعمله، كلّها باختياراتنا، والاختيارات هنا هي التي صارت أو التي ستصير وتتبدّل أو تُغيّر وتتغيّر: {لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ}[255]؛ ولذا فمن طبيعة الاختيارات أن تكون عن إرادة، وفي المقابل عن غير إرادة يمكن للإنسان أن يتعرّض لمواقف تُجبره وتُكرِهه على اختيار وهو في حقيقة أمره لا يرغبه أبدًا.

ومع أنَّ معطيات الحياة الدُّنيا تختلف عن معطيات الحياة الآخرة، فإنَّ أعمالنا وأفعالنا في الحياة الدَّنيا وحدها ستكون الشَّاهدة علينا في حياتنا الآخرة (جنَّةً أو نارًا).

ومع أنَّ خصوصيّة الإنسان في الحياة الدُّنيا وما تصير عليه أحواله لا يكون إلَّا اختيارًا وعن رغبة وإرادة، فإنَّ الحياة الآخرة ليس فيها ما نحاسب عليه، أي: مع أنَّ الحساب (ثوابٌ وعقابٌ) مكانه الحياة الآخرة، فإنَّ الحياة الآخرة ليست منبتًا لما نحاسب عليه؛ ومن هنا فإنَّ الحياة الدُّنيا مدرسةٌ، فمن جدَّ فيها واجتهد نجح وفاز، ومن لم يجدّ فيها ويجتهد فليس له إلَّا الخسارة؛ ولهذا ستكون الدَّار الآخرة لبعض العباد بيتَ حمدٍ وشكرٍ لله تعالى، وستكون لبعض النَّاس بَيت ندمٍ في يومٍ لا ينفع ندم فيه.

[255] البقرة: 256.

ومع أنَّ الموتَ والحياةَ زوجان مخلوقان وجودًا، فإنَّ وجودهما في الحياة الدُّنيا جنبًا إلى جنبٍ لا يعني أنَّ تجانبهما هذا سيظل كذلك في الحياة الآخرة؛ ذلك لأنَّ الموت لا مكان له في الحياة الباقية.

والتساؤل هنا:

كيف لنا أن نسلِّم بموت الموت ولا نسلِّم بموت الحياة والله تعالى يقول: {كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ}[256]؟

نعم. مع أنَّ كلّ من وُجد على الأرض الدُّنيا فانٍ، فإنَّ كلّ ما وجد عليها بقاءً باقٍ، بمعنى: كلّ مَن كُتب عليه الفناء لا بدَّ وأن يفنى، وكلّ من لم يكتب عليه الفناء فلا بدَّ وأن يبقى، وإلَّا هل يفنى من كتب الله له البقاء؟

نعم. أعمالنا وأفعالنا كلّها ستبقى؛ ذلك لأنَّ الفناء لم يكتب عليها؛ ولهذا فقوله: {كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ} لا بدَّ وأن يفنى، والفناء لا يعني الموت، بل يعني: الانتهاء من الوجود على الكينونة والهيئة والصّفة التي كُتبت على الأحياء في حياتهم الدُّنيا.

وفي المقابل قال: {وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ}؛ إنَّه القول الذي يدلُّ على الاستثناء من الفناء، أي: إنَّه الدَّالُّ على مَن كُتبت

[256] الرحمن: 26، 27.

له الحياة بقاءً؛ ومن هنا جاء مفهوم قوله: {ذُو} مفهومًا دالًّا ومرتبطًا بالوجه الذي يبقى حيًّا، ولم يقل: (ذي) ليصبح الارتباط بذات الله تعالى، ومن ثمَّ فمفهوم قوله: {كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ} يدلُّ على أنَّ كل شيء يفنى، وفي المقابل إنَّ مفهوم قوله: {وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ}؛ يدلُّ على أنَّه لا يمكن أن يبقى شيءٌ حيًّا إلَّا ما يُعمل لوجه الله تعالى.

ولذا فلكلٍّ عُمره؛ فللموت عمره، وللحياة عمرها، فعمر الموت يستمر في اتجاه النِّهاية (الفناء) الذي يحتويه مفهوم قوله: {كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ}، وعمر الحياة يستمر في اتجاه الدّيمومة (البقاء) الذي يحتويه مفهوم قوله: {وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ}؛ ومن ثمَّ جاء مفهوم الفناء على معكوس مفهوم البقاء، ولم يأت على معكوس مفهوم الحياة التي جاء الموت على معكوس مفهومها.

وبما أنَّ مكوِّنات الأحياء على الأرض جميعهم مما يَفنى، وأنَّ حقيقة مكونات الموت مكونات فانية؛ إذن: لا مفرّ للموت من الموت؛ ومن هنا فمكوّنات الموت لا تصمد أبدًا أمام مكوّنات الحياة الباقية.

والسّؤال يقول:

هل يموت الموت لو لم يكن حيًّا؟

نعم. الموت في الحياة الدُّنيا على قيد الحياة وجودًا يؤدّي مهمَّته على التمام؛ فالموت لو لم يكن حيًّا لما كان ملاحِقًا للأحياء، ولو لم تكن الحياة الدُّنيا ميدانًا لحيويّته لما كان عاملًا فيها؛ ومن هنا فلن تنتهي مهمّة الموت ما لم تنتهِ الحياة الحاضنة له وجودًا، وإلَّا هل هناك من يظنّ أنَّ الذي خَلق الموت والحياة قد خَلق الموت ميّتًا؟

نعم. لو خَلق الله الموت ميّتًا لكان مخلوقًا بلا غاية، وهذه تتنافى مع أسرار خَلق الله التي كلّها خُلقت لغايات عظيمة، أي: كل مَنْ يُخلق لا يُخلق إلَّا حيًّا، ولغاية: {أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا}[257]؛ ولهذا فالموت لو خُلق ميّتًا لكانت الحياة الدُّنيا وحدها الباقية على قيد الوجود سرمديَّةً.

ومع أنَّ الموتَ فُعلَ على صفته موتًا وبيئة صالحة للإماتة، فإنَّ الموت ليس بمقدوره أن يَفعل شيئًا، بل به يُفعل، والفاعل به هو من فَعلهُ موتًا، وهو الذي به يُميت من خُلق حيًّا.

وحتى لا تَبقى هذه الفقرة بين المفسّرين أو القراء جدلًا أقول: إنَّ الموت فُعل؛ لأنَّ من ورائه الفعَّال له خَلقًا، وهو الذي خَلقه على صفة الموت وبيئته دلالةً ومفهومًا ومعنًى؛ ومن هنا فالموت لم يكن بخالقٍ لنفسهِ، ومع أنَّ صفةَ الموت مرتبطة بمفهومه فهو لا يميت أحدًا أبدًا؛ لأنَّ فعل الإماتة ليس بيده، بل بيد المميت وتحت أمره؛ ولهذا لن يستطيع الموت

[257] المؤمنون: 115.

أن يميت أحدًا ما لم يصدر الأمر إليه إماتة، ومن ثمَّ فبه فِعلُ الإماتة يُفعل، وفاعل فعل الإماتة هو المميت الذي خَلق الموت فعلًا يُفعل بلا مظالم، ولا يكون إلَّا في وقته، وحكمهُ عدلٌ نافذ، والموت لا يمكن أن يتأخر عن أحدٍ، أو يخطأ في أحدٍ، أو يذهب في عنوانٍ من العناوين المرسل إليها، ولا مخلِّص للأرواح ولا منقذ لها من عفانة الأجساد إلَّا هو في ساعةٍ تتنزّلُ فيها الملائكة رحمة.

ومع أنَّ الموتَ مخلوقٌ حيٌّ، ومهمّته تهيئة المناخ المناسب للأحياء ساعة إماتتهم، فإنَّ الموت يعلم أنَّ ما يقوم به من أجل الآخرين هو ما سيقوم به تجاه ذاته؛ ذلك لأنَّ الموت كما هو بيئة صالحة لإماتة الغير فهو البيئة الصالحة لإماتة نفسه.

ومع أنَّ الموتَ بيئةٌ وقد خُلقت صالحة للإماتة، فإنَّه لا إحياء إلَّا منها، سواء أكان إحياء وجود أوَّل، أم إحياء وجود ثانٍ (البعث من بعد العدم).

ولأنَّ الموتَ صفةُ من لم تملأه حيويّة الحياة مقدرة، فإنَّ هذه القاعدة تسري على كلّ إنسان لم تملأه الحيويَّة التي بها يتمكّن من قبول تحدّي الصِّعاب وإحداث النُّقلة ونيل المأمول أو الفوز به. ومثل هؤلاء الأموات على قيد الحياة كثر؛ إنَّهم العالة والعبء الثقيل على حساب حياة الغير الذين حيواتهم مثل الرّوافع؛ تحمل أثقالهم وأثقال الآخرين الذين لا يعيشون إلَّا على حساب جهد تلك الرَّوافع.

ومن هنا أقول: خُلق الإنسان ليعمل كلّ ما مِن شأنه أنْ يُعظِّم حياته على حُسن التقويم ويجنّبه السيّئات، ولم يُخلق ليُفسِدَ في الأرضِ، ولا للاتكال على الآخرين عبء موتٍ، أي: خُلق الإنسان وقد تحمَّل عبء الأمانة العظيمة التي أبت السَّماوات والأرض والجبال أن يحملنها، بل أشفقن منها؛ خوفًا من عدم الالتزام بتفاصيلها وصونها؛ ومن هنا فصعوبة الأمانة تكمن في صعوبة الالتزام بصونها؛ رغبة وإرادة، أي: مع أنَّ الإنسان قد خُلق في أحسن تقويم، فإنَّ حمله للأمانة لم يكن عبئًا على حُسن خَلقه الذي بقي مصانًا كما خُلق، بل الأمانة عبء على الخُلق الذي لا يكون إرادة إلَّا بيد الإنسان الذي حَمَلَ الأمانة؛ ومن ثمَّ فعليه أن يكون في مقام الأخلاق الرّفيعة، التي بها يتمكّن من حمل الأمانة دون أنْ يضعف أو يكلّ أو يمل في الوقت الذي أصبح فيه قاطعًا على نفسه عهد المحافظة عليها، وصونها التزامًا وإرادةً ورغبةً: {إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا}[258]، وكلمة الأمانة كلمة سرّ لا يعلم خفاياها إلَّا من سلّمها واستلمها آمنة، ولأنَّها أمانة فهي لم تكن ملكًا لمن ائتمن عليها، بل ستظل ملكًا لمن ائتمنه عليها: {يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ}[259]، أي: بما أنَّها على صفة الأمانة فإنَّ حمل الأمانة وإنْ طال زمن حملها

---

[258] الأحزاب: 72.

[259] غافر: 16.

فزمنها مؤقّت، ويا ليت الإنسان يصبر، حتى يدرك أنَّ من وراء حمله للأمانة وصونها أجرًا عظيمًا سيجازى به حياة دائمة في نعيمٍ دائمٍ.

ولأنَّ حمل الأمانة جاء من الإنسان وفقًا للإرادة والتخيير التزامًا مسبقًا، وأنّ عقله ساعة قبوله حمل الأمانة لم يكن المستقبل البعيد في مدى رؤيته وتفكيره، فإنَّ ما اتخذه عقله من قرار لم يكن متطابقًا مع عبء الأمانة؛ ولهذا فإنَّ الإنسان قد ظلم نفسه بجهله؛ والجهل يوقع أصحابه إماتة فيما لا يتوقعون.

ولذا فإنَّ الجهل لا يعدّ إلَّا صفة مميتة، وفي المقابل العلم نور به تُكشف الخفايا، وتَنتهي المخاوف، وتبقى الحياة آمنة مطمئنة، ولا يؤخذ الإنسان فيها على حين غرة (سرقة، أو نهبًا، أو جريمة مميتة).

ولهذا فإنَّ الجهل صفة مميتة، وإنَّ الإفساد في الأرض صفة مميتة، وكذلك صفة الاتكال على الغير صفة مميتة؛ ومن هنا فإنَّ الاتكاليَّة والأعمال المخسرة تستمدّ صفاتها المميتة من صفة الموت، وفي المقابل يستمد العلم استنارته المحيية من صفة الحياة، وكذلك يستمد العمل المنتج في مرضاة الله صفته المحيية من صفة الحياة؛ مصداقًا لقوله تعالى: {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}[260].

[260] النحل: 97.

وعليه: فإنَّ الحكمة من الحياة إعطاء الفرصة لمن يعمل صالحًا ولم يغفل عن الزّمن وهو العمر المنكّر (غير المعرّف لأصحابه)؛ إذ جعل الله ساعة الموت مثل ساعة القيامة لا يعلمها إلَّا هو؛ ومن ثمَّ ينبغي أن ينتبه الأحياء للزّمن؛ والدّروس عبر العصور تتكرّر: {وَالْعَصْرِ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ}[261]. جاء القَسم بالعصرِ (الزّمن)؛ للفت الانتباه لتلك الدُّروس الموعِظة عبر الزّمن، والتي خَسِرَ أصحابها حياتهم بما ظلموا، وفي المقابل كسب الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر.

ولأنَّ النِّهاية موت فَلِمَ لا يعتبر بنو الإنسان قبل أنْ يأتيهم الموت (المخلِصُ في عمله بغتة)، وإلَّا هل هناك مَن هو أكثر إخلاصًا في عمله من الموت الذي سيكون شاهدًا على إماتتنا، ولن نكون شاهدين عليه إلَّا بعد بعث نظلُّ فيه أحياء، ويموت الموت ولن يحيى؟!

والحمد لله ربّ العالمين

إسطنبول 2021م

[261] العصر: 1 – 3.

صدر للمؤلّف

صدر للمؤلّف الدكتور عقيل حسين: 92 بحثا نشرت داخل ليبيا، وخارجها.

صدر له (169) مؤلّفا منها: خمس موسوعات.

أشرف، وناقش 83 رسالة ماجستير، ودكتوراه.

. مجالات اهتمام المؤلف البحثية:

1 . الخدمة الاجتماعيَّة، والتنمية البشرية.

2 . طرق البحث الاجتماعي.

3 . الفكر والسياسة.

4 . الإسلاميَّات.

5 . الأدب

تُرجمت ونشرت له مؤلّفات باللغة الإنجليزية، والتركية.

المؤلّفات

1 ـ مستوى التحصيل العلمي بمرحلة التعليم المتوسط، طرابلس ليبيا، 1989م.

2 ـ الأصول الفلسفية لتنظيم المجتمع، منشورات جامعة طرابلس، ليبيا، 1992م.

3ـ فلسفة مناهج البحث العلمي، منشورات الجأ، 1995م.

4 ـ منهج تحليل المعلومات وتحليل المضمون، منشورات الجأ، مالطا، 1996م.

5 ـ سيادة البشر دراسة في تطور الفكر الاجتماعي، منشورات الجأ، مالطا، 1997م.

6 ـ المفاهيم العلمية دراسة في فلسفة التحليل، المؤسسة العربية للنشر وإبداع، الدار البيضاء، 1999م.

7 ـ البستان الحلم، دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1999م.

8 ـ التصنيف القيمي للعولمة، منشورات الجأ، مالطا، 2001م.

9 ـ الديمقراطية في عصر العولمة (كسر القيد بالقيد)، دار الجأ، مالطا،

2001م.

10 . نشوة ذاكرة، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، 2004م.

11 . خماسي تحليل القيم، دار الكتاب المتحدة، بيروت، 2004م.

12 . منطق الحوار بين الأنا والآخر، دار الكتاب المتحدة، بيروت، 2004م.

13 . خدمة الفرد قيم وحداثة، دار الحكمة، 2006م.

14 . خدمة الجماعة رؤية قيمية معاصرة، دار الحكمة، 2006م.

15 . البرمجية القيمية لمهنة الخدمة الاجتماعيَّة، الدار الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2007م.

16 . البرمجية القيمية في طريقة تنظيم المجتمع، الدار الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2007م.

17 . البرمجية القيمية في طريقة خدمة الجماعة، الدار الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2007م.

18. الموسوعة القيمية لبرمجية الخدمة الاجتماعيَّة، الدار الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2007م.

19 ـ البرمجية القيمية في خدمة الفرد، الدار الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2008م.

20 ـ مفاهيم في استراتيجيات المعرفة، الدار الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2008م.

21 ـ المقدمة في أسماء الله الحسنى وأثرها في استخلاف الإنسان في الأرض، دار ابن كثير، بيروت ـ دمشق، 2009م.

22 ـ موسوعة أسماء الله الحسنى وأثرها في استخلاف الإنسان في الأرض، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2009م.

23 ـ ألستم من آل البيت، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2010م.

24 ـ مختصر موسوعة أسماء الله الحسنى وأثرها في استخلاف الإنسان في الأرض، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2010م.

25 ـ خطوات البحث العلمي (من تحديد المشكلة إلى تفسير النتيجة)، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2010م.

26 ـ قواعد المنهج وطرق البحث العلمي، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2010م.

27 ـ أسماء حُسنى غير الأسماء الحسنى، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2010م.

28 . آدم من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

29 . نوح من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

30 . إدريس وهود وصالح من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

31 . إبراهيم وإسحاق وإسماعيل ولوط من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

32 . شعيب من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

33 . يعقوب ويوسف من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

34 . داوود وسليمان من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

35 . يونس من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

36 . أيوب واليسع وذو الكفل وإلياس من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

37 . موسى من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

38 . عيسى من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

39 . محمَّد من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

40 . صفات الأنبياء من قصص القرآن، آدم ونوح، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

41 . صفات الأنبياء من قصص القرآن، ادريس ويعقوب ويوسف، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

42 . صفات الأنبياء من قصص القرآن، أيوب وذو الكفل واليسع والياس، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

43 . صفات الأنبياء من قصص القرآن، موسى وهارون وعيسى، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

44 . صفات الأنبياء من قصص القرآن، يونس وزكريا ويحيى، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

45 . صفات الأنبياء من قصص القرآن، إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ولوط، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

46 ـ صفات الأنبياء من قصص القرآن، هود وصالح وشعيب، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

47 ـ صفات الأنبياء من قصص القرآن، داوود وسليمان، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

48 ـ صفات الأنبياء من قصص القرآن، النبي محمَّد، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

49 ـ موسوعة صفات الأنبياء من قصص القرآن، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

50 ـ موسوعة الأنبياء من وحي القرآن، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

51 ـ التطرُّف من التهيّؤ إلى الحلّ، المجموعة الدولية للطباعة وانشر، القاهرة، 2011م.

52 ـ ألسنا أمةً وسطا، ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2011م.

53 ـ المنهج وطريقة تحليل المضمون، ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2011م.

54 ـ الإرهاب (بين قادحيه ومادحيه) المجموعة الدولية للطباعة وانشر، القاهرة، 2011م.

55 ـ الخوف وآفاق المستقبل، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2011م.

56 ـ سُنن التدافع، شركة الملتقى للطباعة وانشر للطباعة والنشر، بيروت: 2011م.

57 ـ خريف السُّلطان (الرَّحيل المتوقّع وغير المتوقّع) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

58 ـ من قيم القرآن الكريم (قيم إقداميّة) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

59 ـ من قيم القرآن الكريم (قيم تدبّرية) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

60 ـ من قيم القرآن الكريم (قيم وثوقيّة) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

61 ـ من قيم القرآن الكريم (قيم تأييدية) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

62 ـ من قيم القرآن الكريم (قيم مناصرة) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

63 ـ من قيم القرآن الكريم (قيم استبصارية) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

64 ـ من قيم القرآن الكريم (قيم تحفيزية) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

65 ـ من قيم القرآن الكريم (قيم وعظية) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

66 ـ من قيم القرآن الكريم (قيم شواهد) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

67 ـ من قيم القرآن (قيم مرجعيّة) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

68 ـ من قيم القرآن الكريم (قيم تسليمية) شركة الملتقى للطباعة والنشر، بيروت، 2011م.

69 ـ من قيم القرآن الكريم (قيم تسامح)، شركة الملتقي للطباعة والنشر، بيروت، 2011م.

70 ـ من قيم القرآن الكريم (قيم تيقُّنيّة)، شركة الملتقى للطباعة والنشر، بيروت، 2011م.

71 ـ الرفض استشعار حرية، دار الملتقى، بيروت، 2011م.

72 ـ تقويض القيم (من التكميم إلى تفجّر الثورات)، شركة الملتقى، بيروت، 2011م.

73 . ربيع النّاس (من الإصلاح إلى الحلّ) المجموعة الدولية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2011م.

74 . موسوعة القيم من القرآن الكريم، شركة الملتقى للطباعة والنشر، بيروت، 2012م

75 . أسرار وحقائق من زمن القذافي، المجموعة الدولية للنشر والتوزيع، القاهرة، ودار المختار طرابلس، 2013م.

76 . وماذا بعد القذافي؟ المجموعة الدولية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2013م.

77 . ثورات الرّبيع العربي (ماذا بعد؟) المجموعة الدولية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2013م.

78 . العزل السياسي بين حرمان وهيمنة، الزّعيم للخدمات المكتبية والنشر، القاهرة، 2014م.

79 . السياسة بين خلاف واختلاف، الزّعيم للخدمات المكتبية والنشر، القاهرة، 3014.

80 . الهويّة الوطنية بين متوقّع وغير متوقّع، الزّعيم للخدمات المكتبية والنشر، القاهرة، 2014.

81 . العفو العام والمصالحة الوطنية، الزّعيم للخدمات المكتبية والنشر، القاهرة، 2014م.

82 ـ فوضى الحلّ، الزّعيم للخدمات المكتبية والنشر، القاهرة، 2014م.

83 ـ بسم الله بداية ونهاية، القاهرة، الزّعيم للخدمات المكتبية والنشر، 2015.

84 ـ من معجزات الكون (خَلق ـ نشوء ـ ارتقاء)، المجموعة الدولية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2016م.

85 ـ مقدّمة الأنبياء من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

86 ـ موسوعة الأنبياء من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

87 ـ آدم من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

88 ـ إدريس من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

89 ـ نوح من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م 89 ـ

90 ـ هود من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

91 . صالح من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

92 . لوط من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

93 . إبراهيم من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

94 . إسماعيل من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

95 . إسحاق من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

96 . يعقوب من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

97 . يوسف من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

98 . شعيب من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

99 . أيوب من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

100. ذو الكفل من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

101 . يونس من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

102 . موسى من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

103 . هارون من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

104 . إلياس من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

105 . اليسع من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

106 . داوود من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

107 . سليمان من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

108 . زكريا من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

109 . يحيى من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

110 عيسى من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

111 . محمّد من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

112 . الدّعاء ومفاتيحه، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة، 2017م.

113 . صُنع المستقبل، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

114 . الفاعلون من الإرادة إلى الفعل، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

115 . مبادئ التنمية البشرية، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

116 . من الفِكَر إلى الفِكْر، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

117 . التهيؤ، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

118 ـ منابع الأمل، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

119 ـ الأمل، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

120 ـ المبادئ الرئيسة للسياسات الرّفيعة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة، 2018م.

121 ـ تحدّي الصعاب، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

122 ـ الواحدية من الخلق إلى البعث، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

123 ـ مبادئ تحدي الصعاب، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

124 ـ المعلومة الصائبة تصحح الخاطئة (من الخوف إلى الإرهاب) مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

125 ـ الممكن (متوقّع وغير متوقّع) مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

126 ـ مبادئ فكّ التأزّمات، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

127 . الأهداف المهنيّة ودور الأخصائي الاجتماعي، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

128 . تصحيحا للمفاهيم (فاحذروا)، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

129 . العدل لا وسطية ولا تطرف، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

130 . غرس الثّقة (مبدأ الخدمة الاجتماعيَّة)، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

131 . مفاهيم الصّلاة والتسليم على الأنبياء، مكتبة الخانجي، القاهرة، 2018م.

132 . الخدمة الاجتماعيَّة (قواعد ومبادئ قيميّة) مكتبة المصرية، القاهرة، 2018م.

133 – كيفيّة استطلاع الدراسات السَّابقة مكتبة المصرية، القاهرة، 2018م.

134 – الخدمة الاجتماعيَّة (تحليل المفهوم ودراسة الحالة) مكتبة المصرية، القاهرة، 2018م.

135 – الخدمة الاجتماعيَّة (مبادي واهداف قيمية) مكتبة المصرية، القاهرة، 2018م.

136 – الخدمة الاجتماعيَّة (مفاهيم مصطلحات)، مكتبة المصرية، القاهرة، 2018م.

137 – التنمية البشرية (كيف تتحدّى الصّعاب وتصنع مستقبلًا)، مكتبة القاضي، القاهرة، 2018م.

138 – مبادئ الخدمة الاجتماعيَّة (تحدّي الصّعاب وإحداث النُّقلة) مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2019.

139 _ الإرهاب بين خائف ومخيف، مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2019.

140 _ التطرُّف من الإرادة إلى الفعل، مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2019.

141 _ البحث العلمي (المنهج والطريقة) مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2019.

142 _ العدل ينسف الظلم، مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2020.

143 _ تقويض الإرادة، مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2020.

144 _ القوَّة تفكّ التأزُّمات، مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2020.

145 _ إحداث النُّقلة تحدٍّ، مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2020.

146 _ نيل المأمول قمَّة، مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2020.

147 _ نحو النظريَّة خلقًا، مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2020.

148 _ نحو النظريَّة نشوء، مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2020.

149 _ نحو النظريَّة ارتقاء، مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2020.

150 – الخلاف (في دائرة التاريخ) مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2020.

151- القواعد المنهجية للباحث الاجتماعي والقانوني، القاهرة: دار القاضي، 2220.

152 – قواعد البحث للعلوم الاجتماعية والإنسانية، 2020م.

153 – خطوات البحث العلمي وصناعة الأمل، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2021م.

154 – المنهج العلمي وإحداث النُّقلة، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2021م.

155- دراسة الحالة ودور الأخصائي الاجتماعي، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2021م.

156- قواعد البحث العلمي وصنع المستقبل، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2021م.

157- وسائل التأهب للبحث العلمي، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2021م.

158- حلقات صناعة المستقبل، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2021م.

159- أمحمَّدٌ أميٌّ، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2021م.

160- طرق البحث العلمي ونيل المأمول، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2021م.

161- الطريقة العلمية لتحليل مضمون القيم، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2021م.

162-كسر الوهم، القاهرة: مكتبة القاضي، 2021م.

163- معجزات وبعضها من بعض، المصرية، القاهرة، 2021م.

164 . أيد السارقِ تقطع، المصرية، القاهرة: 2021م.

165 – العقل من اللاشيء إلى الشيء دراية.

166 – النُّقلة من التكيف إلى التوافق، المصريّة للطباعة والنشر، القاهرة 2020م.

167 – أوهام الأنا (اللاهويَّة).

168 – استرداد السيادة، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة، 2021م

169 - موت الموت، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة، 2021م

المؤلّف في سطور

أ د. عقيل حسين عقيل

مواليد ليبيا 1953م

بكالوريوس آداب 1976م بدرجة الشّرف الأولى جامعة الفاتح (طرابلس).

ماجستير تربية وتنمية بشرية جامعة جورج واشنطن 1981م مع درجة الشّرف.

. دكتوراه في الخدمة الاجتماعيَّة.

. أستاذ بجامعة الفاتح كلية الآداب (طرابلس).

. شغل منصب أمين تعليم بلدية طرابلس (1986 . 1990).

. انتخب من قبل مؤتمر الشعب العام مفتشا عامّا لقطاع الشؤون الاجتماعيَّة، ثمّ كلّف بالتفتيش على وزارتي التعليم العام والتعليم العالي 2006م.

. شغل منصب أمين التعليم العالي (وزيرا) 2007 . 2009م.

. انتخب أمينا عاما للتنمية البشرية بأمانة مؤتمر الشّعب العام 2009م.

. صدر للمؤلّف 92 بحثا نشرت داخل ليبيا وخارجها.

. صدر له (169) مؤلّفا منها خمس موسوعات.

. أشرف وناقش 83 رسالة ماجستير ودكتوراه.

. مجالات اهتمام المؤلف البحثيَّة:

1 . الخدمة الاجتماعيَّة والتنمية البشرية.

2 . طرق البحث الاجتماعي.

3 . الفكر والسياسة.

4 . الإسلاميات.

5 . الأدب

تُرجمت ونشرت له مؤلّفات باللغة الإنجليزية والتركية.

الموقع الإلكتروني: (موقع الدكتور عقيل حسين عقيل)

أو: https://draqeel.com/